وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الجنُّ يرحل من القرية

رواية

د . عيسى درويش

قصص وروايات ٤٥

الجنُّ يرحل من القرية

الهيئة العامة السورية للكتاب

تصميم الغلاف

فراس نعوف

الهيئة العامة السورية للكتاب

د. عيسى درويش

الجنُّ يرحل من القرية

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م

الجن يرحل من القرية / عيسى درويش .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .- ١٧٦ ص؛ ٢٤ سم .

(قصص وروايات؛ ٤٥)

١- ٨١٣,٠٣ د ر و ج ٢- العنوان ٣- درويش
٤- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص وروايات

«٤٥»

الإهداء

إلى رواد النهضة العربية الذين عملوا من أجل أن يرفعوا قيمة الإنسان ويثروا الفكر، ويجعلوا للعقل الكلمة الفصل.

إلى الذين حاربوا الخرافة والجهل.

إلى أستاذنا الفيلسوف زكي الأرسوزي الذي ربط بفكره بين قيم الأرض وقيم السماء.... بين العقل والنور.... بين المادة والروح .

أهدي هذه الرواية

«المؤلف»

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة
السورية للكتاب

(١)

لم يكن حمود الراوي هو الرجل الوحيد في القرية الذي رأى الجن وتحدث إليهم، بل إن الكثيرين من رجال القرية ونسائها قد رأوا ذلك ــ حتى أن بعضهم كان يطلب من أولاده أن لا يذهبوا ليلاً إلى الوديان التي تمر بها السواقي أو تجري فيها الينابيع.. ورواية أهل القرية بما فيهم حمود الراوي كانت تقول: إن الجن يجتمعون ليلاً عند الينابيع ويقيمون الأفراح يرقصون ويغنّون وتُسمع أصواتهم حول المكان. أصبحَ حديث الجن شيئاً مألوفاً في القرية لا يملكون من أمرهم سوى التآلف مع هذا الواقع، ولكن الشيخ محمد المعروف بالنجار كان يكتب لهم الأدعية التي تحفظهم ويقوم مقام الطبيب لمن لحقه مسٌّ من الجن.. وينصحهم بعدم زيارة المقابر أو المرور فيها بعد الغروب.

جاء إلى القرية وافدٌ من مدينة بعيدة.. ولكنه ضاق ذرعاً بأحاديث أهل القرية حتى إنه اتهمهم جميعاً بالجنون والخرف وتحداهم أن يثبتوا له ما يدّعونه.. ولم تنفع نقاشاته معهم حول الجن .. حتى إنه دخل في مناظرة مع الشيخ النجار، شرح له الشيخ أن الجن مخلوقات لا ترى بالعين وهي كالإنس منها من يعبد الله ومنهم الكفرة أولياء الشياطين، وذكر له الشيخ أن الجن الصالح صديق الإنسان ويسخره الله لخدمة الأنبياء والصالحين، أما الجن الكفرة فهم أولياء الشيطان يحاولون إغواء الإنسان وسوقه إلى المعاصي والتربص له وإلحاق الأذى به وبمن حوله.. ولم يؤثر حديث الشيخ بالوافد ورفضه الأهالي وأصبح منبوذاً بعد أن سمعوا بمجادلته للشيخ وعدم إيمانه بأقواله.

كان الوقت ظهراً وكان الشيخ النجار قد صلى صلاة الظهر وعند العودة من مسجد القرية قال له أحد المواطنين: أسرع يا شيخ محمد لديك ضيوف في المنزل بانتظارك..

أسرع الشيخ إلى المنزل فوجد جماعة يصطحبون معهم فتى في الثامنة عشرة من عمره حسن الصحة لا عيب في خلقته.. وعندما سأل أهله ما حال الفتى.. أجاب والده أنه نزل الساقية ليلاً واتجه نحو النبع فوجد صبيّة من الجن تغتسل في الماء فظن أنها من الإنس فأدار وجهه عنها لكنها خرجت من الماء وجاءت إليه تغريه بحلو الكلام وموسيقى الغزل.. حتى أغوته وواقعها.. ومنذ تلك اللحظة يخرج الفتى من المنزل ويلاقيها ويتحدث معها، وعندما نسأله مع من تتكلم يقول مع زوجتي غزالة.. ألا تشاهدونها.. إنها أمامكم ويقوم بحركات مردّداً غزالة - غزالة.. حتى يأخذه الحال ويغط في نوم عميق..

قال الشيخ النجار: سنرى أمره..

أخذ الشيخ ورقة سجل فيها اسم المريض واسم والدته وتاريخ ولادته ثم تولى حساب البروج.. واستدار بعد أن فرغ من عملياته الحسابية قائلاً:

إن الفتى قد سكنته الجنية غزالة وتزوجت منه وهي لا تفارقه.. وسنقوم بإخراجها لكنها عنيدة ومغرمة به.. إنه يحتاج إلى أيام وإلى جلسات متعددة للشفاء.

كان الوافد للقرية رجلاً أشقر اللون أبيض الوجه في عينيه زرقةٌ ، كان يقول لأهل القرية إن والده من آل منصور هاجر إلى بلاد الغرب وتزوج من امرأة هناك.. وكان والده يقول له إنه من قرية في محافظة اللاذقية والبعض الآخر كان يطلق عليها أرض البلاطة نسبة إلى بلاطة بيضاء اللون تبلغ عدة أمتار مربعة كانت تقبع على تلة مرتفعة من الأرض وتحيط بها خرائب من الصخور الكبيرة الحجم.. ويتدفق من أسفل التلة من جهة الغرب نبع ماء عذب يجري في الوادي المجاور حيث تكثر الأشجار المثمرة وتنبت على

سواقيه نباتات القصب والدغل مما يشكل ملجأً للثعالب وبنات آوى والقطط البرية. وقد دارت أساطير وحكايا حول هذه البلاطة تناقلها الأهالي جيلاً بعد جيل، مفادها: أن كنزاً من الذهب يقبع تحت هذه البلاطة، وأنه محروس من الجن.. وفي كل يوم من الشهر غير معلوم التاريخ يظهر جني على هيئة ديك من الدجاج كبير الحجم زاهي الألوان يصيح عدة مرات ثم يختفي إلى موعد آخر من الشهر القادم وهكذا..

وقد فسر شيوخ القرية ظهور هذا الديك بأنه دعوة لفك طلاسم هذا الكنز وتحرير الديك من حراسته.. وأن لهذا الكنز «شيفرة» مؤلفة من حروف وجمل يرددها الطالب الراغب بالكنز واقفاً على البلاطة إلى المطلوب "الديك الجني" فتنزاح البلاطة ويفتح الكنز.. أما إذا تطفل طالب الكنز وتصرف بجهل وأزعج الجن.. فسيقوم الجن بضربه وقد يؤدي هذا الضرب إلى موته أو إلحاق الأذيّة به مثل شلل اليد أو شلل الوجه أو العين.. ويضربون الأمثلة على الرجال الذين أصابهم هذا العارض وفشلوا في فك طلاسم هذا الكنز المزعوم.

ونجح الوافد في إقناع أهل القرية بانتسابه إلى عائلة منصور في القرية، وأسمى نفسه عزمي منصور.. وكان عزمي قد تلقى تعليماً في بلاد الغربة وتعلم اللغة التركية والألمانيّة إلى جانب العربية.. ولكنه كان يرى في القرية اختلافاً عن بيئته الأولى.. ولكنه استطاع بذكائه أن يبدو كأنه واحد من أهلها وانخرط في بيئتها ــ مع أنّه لم يستطع تقبل رواية القرية عن الجن فظل على خلاف معهم حولها..

عندما بدأ الشيخ محمد النجار الاستعداد لبدء الجلسات العلاجية لمريضه القادم من القرى المجاورة سمع عزمي منصور بذلك، فذهب إلى الشيخ النجار راجياً منه السماح له بحضور الجلسة.. لكن الشيخ أقنعه بأن حضوره خطرٌ عليه فقد تخرج الجنيّة من الفتى المريض وتتلبسه وتسكن فيه وعند ذلك سيكون أمام الشيخ صعوبة كبيرة لإخراجها منه، ناهيك عن الخطر الذي يحيق به..

قال عزمي للشيخ: ما يمنعني من الحضور إذا كتبت تعهداً على نفسي بتحمل المسؤولية؟

فأجابه الشيخ: تعهدك هذا أمامي لا يفيدك أمام الجن.. أما إذا أصابتك عاهةٌ سأكون مسؤولاً عنها أمام الله.. وخاصة أنك إنسان لا تؤمن بما نؤمن به نحن..

غضب عزمي من كلام الشيخ وامتنع عن مجادلته حتى لا تزداد مشاكله مع أهل القرية إذا أغضبه، فانسحب مسرعاً من منزله مفضلاً عدم إثارة المشاكل.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٢)

تذكر عزمي منصور ما قاله له والده في الغربة عن اللاذقية وعشقه لها، وعندما وصل إليها وجدها أكثر جمالاً من وصف والده لها، فقد قال له: إن اللاذقية بناها أحد قادة الإسكندر المكدوني وتقع على رأس من البر، وعلى الشرق منها هضبة تسمى تل القلعة حيث تصبح في الربيع بساطاً زاهي الألوان من أزهار الربيع فيها الأبيض والأصفر والأحمر والبنفسجي، ويخرج سكان اللاذقية في الأول من نيسان لملاقاة الربيع ويتسلق المواطنون هذا الجبل الصغير منذ الصباح الباكر وقد أعدوا طعامهم من البيض الملون والأجبان والحلويات ويتفاعل الإنسان مع الطبيعة وهذا التقليد يا ولدي قديم ويقال إنه يمثل عودة أدونيس إله الخصب إلى الحياة ليلتقي حبيبته عشتار من جديد. وفي المساء يعودون محملين بالزهور وسنابل القمح والذكريات الجميلة..

استغرق عزمي في التأمل عندما تذكر والده فخرج إلى الشرفة وأدار وجهه إلى البحر، كان الوقت صباحاً والبحر بزرقته الصافية يعكس صفاء السماء، زوارق صيد صغيرة تناثرت على صفحة الماء كأنها قطع من البياض المتناثر، أجال ببصره نحو الميناء فوجد السفن الداخلة والسفن الخارجة، تذكر أن الحياة رحلة تبدأ في نقطة وتنتهي في أخرى وتذكر أنه في اللاذقية فأدار وجهه نحو الشرق فوجد الهضبة غير ما وصفه له والده، فقد بدأ العمران يزحف إليها ويشوه هذه الإطلالة الخالدة على اللاذقية، لم يره كما رآه والده ولكنه استطاع تخيله، رجع إلى الغرفة، اقتطع ورقةً من دفترٍ أمامه كتب فيها ما يشبه رسالة إلى أبيه قائلاً:

يا والدي مدينتك أجمل مما وصفت، لم تعد تخرج اللاذقية لملاقاة نيسان كما كانوا يفعلون في أيامك، الآن يا والدي نيسان يدق الأبواب عليهم فلا يبالون ولا يخرجون، وهذا الجبل المزين بالزّهور كما وصفت أصبح كتلة من

البناء، إنني أرى الأحجار والإسمنت فأُصاب بالصداع، أما البحر فسبحان، الخالق فهو أزرق هادئ الطباع لا أرى فيه الموج العاتي ولا الأعاصير، إنه يداعب أهل البلد إذا ما غضب ويضحك إذا استقر الريح. ويدعوهم إلى حضنه إذا كان في ساعة هدوء وراحة بال، أخشى عليه يا والدي من عدم احترام العهد بين الإنسان وبين البحر فيزداد التلوث ويزداد التشويه.

لم يقطع عزمي تفكيره إلا بعد أن قُرع الجرس فخرج ليفتح الباب، كان الزائر العم أبو اصطيف ومنذ كان شاباً كان يريد تسمية ابنه مصطفى على اسم والده وبالرغم من أنه تزوج وأنجب مصطفى وصار مصطفى شاباً إلا أنه بقى يدعى أبو اصطيف كما كان يطلق عليه أيام الشباب.

صباح الخير أستاذ عزمي قال أبو اصطيف:

- صباح الخير عم أبو اصطيف ما الخبر؟!

- جئت إليك لأخبرك بأنه بعد يومين عيد المولد النبوي وسنقيم حلقة ذكر في بيت علي جعفر سنزور الشيخ المغربي في القلعة والشيخ البطرني على البحر.. وسنأخذك معنا

- وماذا سأفعل معكم يا عم أبو اصطيف

- نصلي المغرب وبعدها نقيم حلقة الذكر ونذهب بعد العشاء للزيارة وأنت ترى المشايخ وتسمع عن قصة الأولياء والصالحين وأسرارهم وعجائب أعمالهم.

وقف عزمي يسمع أبو اصطيف بعد أن مضى يسترسل في السرد والشرح وعزمي ينظر إليه، ثم قاطعه قائلاً.

سأنتظرك في الوقت المحدد، وأشكرك لأنك ستكون معي في هذا الاحتفال.

عاد عزمي بفكره إلى ألمانيا حيث عاش ودرس، قارن بين الخيال في الشرق والواقع في بلاد الغرب، ولكنه تذكر والده عندما قال له.

تقضي حياتك هنا، لا يعرفك أحد إلا إذا كان له مصلحة معك، الجميع مشغول ولا تماسك في الأسرة، الابن يتذكر والده في عيد الميلاد فيرسل له بطاقة معايدة، والابنة تذهب مع صديقها ولا تعود إلى منزل أهلها إلا في حالة الضرورة إذا عادت، أما في الشرق يا ولدي فالأسرة مترابطة والتقاليد محفوظة..

قال عزمي: فعلاً التقاليد محفوظة وهاهو العم أبو اصطيف حريص على أن لا تفوتنا المناسبة. هذا الجار الطيب الذي يقدم خدماته دون مقابل، إنه التزام الجار وحق الجيرة.

في عيد المولد ازدانت المدينة بالزينة، وتلألأت المساجد بالأنوار، وسمع عزمي أصوات المفرقعات التي يرميها الأولاد في الشارع احتفالاً بالمناسبة وخرج إلى الشرفة ولم يستطع أن يعرف شيئاً فعاد إلى الغرفة ينتظر أبو اصطيف..

وماهي إلا دقائق حتى جاء أبو اصطيف يحمل طبقاً من الحلوى إلى الأستاذ عزمي وسأله ما هذا يا أبو اصطيف؟!

- هذه حلوى المولد... وهذه تشتهر بها اللاذقية..

- وما اسمها؟ حلويات عندنا متنوعة جداً وتسمى اللوزينا..

- شكراً يا عم أبو اصطيف.. وما هذه المفرقعات؟

- أصوات أسهم نارية، ومتفجرات صوتية يحبها الأطفال، ومع أن الحكومة تمنعها وتنبه إلى عدم استعمالها لأنها تخلق أذى وعاهات للأطفال، ولكن التجار يجلبونها والشرطة تغض الطرف "الناس بدها تعيش".

خرج عزمي مع صديقه أبو اصطيف بعد صلاة المغرب إلى منزل الحاج علي جعفر الوجيه المعروف في الحي، وكان الشيوخ قد أخذوا مكانهم وتهيؤوا للحفلة، وبعد تلاوة القرآن وقصة المولد النبوي الشريف بدأت فرق الإنشاد الديني، وبالرغم من طول البرنامج كان عزمي مسروراً، فلقد تخصص في الفلسفة وعلم النفس وكان يشرح للأجانب في ألمانيا عظمة الدين

الإسلامي وروعته والسلوك الإنساني والأخلاقي للنبي محمد - ولم يسره سلوك بعض المسلمين في ألمانيا لأن الإسلام شيء وسلوك هؤلاء شيء آخر.

خرج عزمي لزيارة الشيخ المغربي والشيخ البطرني وفق البرنامج المرسوم من أبو اصطيف ولم يتركه إلا بعد أن دعاه إلى صحن من الكنافة عند مجنون ليلى.

عاد عزمي إلى المنزل مفعماً براحة نفسية أثارت الكثير من التأمل في نفسه، وخاصة ما تركته من حوافز لدراسة تركيب هذا المجتمع الذي كثيراً ما لفت نظره أن رجال الدين إلا ما ندر منهم يقفون دائماً حول السلطة أو أصحاب المال، لقد وجد فقراء الناس يتزاحمون حول أضرحة الأولياء، في حين لم يشاهدهم حول المحافظ أو الوجهاء في دعواتهم، فقط يدعونهم في الأزمات وفي الأعياد الرسمية ويطلبون أن ينزلوا إلى الشارع للترحيب بالضيوف من كبار رجال السلطة، أو يطلبون منهم النزول إلى الانتخابات لاختيار النواب للبرلمان وتكثر الولائم والرشى والتملّق لهم لكسب ودهم ــ أما إذ انتهت المناسبات أصبح الفقراء في واد والمتنفذون في واد آخر..

(٣)

دقت الطبول في أنحاء المدينة وارتدى الناس لباس الاحتفال، بعد قليل سيبدأ استعراض الطرق الصوفية، وهذا اليوم هو مولد الشيخ العارف بالله الشيخ البحري الذي يقول الناس عنه، إنه أوقف موج البحر العاتي وخرج الصيادون إلى الصيد وحصلوا على أسماك وفيرة ومنع الإعصار من الوصول إلى البر، حيث تلاشى عندما اقترب من البر.. وتناقل الناس أخباره جيلاً بعد جيل.

خرج عزمي منصور مع الجمهور ومعه صديقه أبو اصطيف الذي أخذ يشرح لعزمي طقوس الاحتفال، وعزمي ينصت إليه، كان أبو اصطيف كثير الحماس للمشايخ الصوفية، ولكنه كان يعرج على ذكر بعض المشايخ الذين يحبون الدنيا ويستغلون الشعب ويهاجمهم هجوماً عنيفاً، وذكر أبو اصطيف لعزمي قصة الشيخ الأفيوني الذي كان يتعاطى شرب الأفيون لممارسة السحر وكيف جره الناس من ثيابه عندما مارس الشعوذة على إحدى النساء لكي تحمل بصبي، وكيف اكتشف زوجها كتابة الطلاسم على فخذها ومؤخرتها أثناء مضاجعتها كما طلب منها الشيخ الأفيوني وعندما سألها زوجها عن الأمر، روت له الحقيقة فطلقها، ولم ينس أبو اصطيف أن يقول لعزمي وهو يضحك" العمى في عيونه"..

كيف سمح لنفسه أن يطلع على عورة هذه المرأة؟ من الذي سمح له بذلك؟! وأين الدين من هذا؟ لقد تم جرّه إلى الشرطة لينال جزاءه ويقدم للمحاكمة.

كان عزمي شغوفاً برواية أبو اصطيف له، وكان قد أخرج ورقة صغيرة وقلماً يدون بها بعض الملاحظات، لاحظ أبو اصطيف ذلك فسأله قائلاً:

"شو هاد يا أستاذ نازل كتابة" هل تريد كتابة تقرير فيما أقوله لك للمخابرات؟

ضحك عزمي قائلاً:

لا.. يا أبو اصطيف.. إنها ملاحظات لأتذكر المناسبة وأكتب عنها في مذكراتي..

اكتب عنها ما تشاء.. ولا تنس أن تذكر أبو اصطيف في الكتاب.

- طبعاً.. سأكتب عن أبو اصطيف مثل أبو زيد الهلالي.

- أبو زيد الهلالي "هذه كبيرة يا أستاذ.. شو أنا فتحت تونس"

- أبو اصطيف.. أنت إنسان رائع..

- لا رائع ولا يحزنون، "أنا ابن بلَد وبس"..

- قال عزمي: سأدعوك إلى مقهى العصافيري الذي يذكرني بمقاهي البحر في اليونان، وهذه المرة على حسابي وسنأكل هناك الحمص والفول ما رأيك؟

أجاب أبو اصطيف لا مانع.. وبعدها نذهب إلى حلويات مجنون ليلى.

قال عزمي:

فول وحمص وحلويات.؟ تريدنا أن ننفجر يا أبو اصطيف؟

ضحك أبو اصطيف وانطلقنا إلى مقهى العصافيري على البحر..

استعاد عزمي منصور مرحلة الدراسة في الجامعة وتذكر كيف أن الأستاذ كان يصطحبهم لدراسة الواقع والاتصال بالناس موضوع الدراسة، وقارن بين أستاذه الألماني، وأبو اصطيف هذا المواطن الطيب الذي يتكلم بصراحة عن مشاكل البلد، يعرضها بصدق ثم يحدد موقفه منها بكل موضوعية إنها مدرسة الحياة التي تعلم الناس بالتجربة..

سأل أبو اصطيف صديقه عزمي عن رأيه بالجن؟

نظر عزمي إلى "أبو اصطيف" نظرة استغراب.. وذهب خياله إلى قرية والده "أرض الجان" وتذكر الشيخ النجار ومناقشة الشيخ حول الجن.. ثم سأل أبو اصطيف قائلاً:

وما هي قصة الجن يا أبو اصطيف.. ما القصد من سؤالك؟.

ضحك أبو اصطيف لردة فعل عزمي ثم قال:

الجن يا أستاذ يجلس معنا على الطاولة ونحن لا نشاهده، موجود في الحارات وفي بلاليع الماء وتحت الأرض..

ثم طلب من عزمي أن ينظر إلى بناية الصوفي في آخر الكورنيش قائلاً:

هذه العمارة العالية البيضاء.. هل تشاهدها؟

- نعم أشاهدها.. وماذا بها..

- هذه عمارة الصوفي.. بعد أن سكنها أصحابها والذين اشتروا بها الشقق، اكتشفوا أن الجن يسكن بها.. ويصدرون أصواتاً وضجيجاً في الليل ويقرعون الأبواب والشبابيك ولا يتركون أهلها ينامون.. وأحياناً يقيمون حفلات غناء، وتسمع موسيقى وضحك وغير ذلك.

- ماذا تقول يا أبو اصطيف.. هذه تخيلات وأمراض نفسية وشائعات لا وجود لها.

نهض أبو اصطيف قائلاً:

اسأل من تريد في هذا المقهى.. الجميع في المدينة يعرفون القصة، لماذا لا تصدقني.. قالها بعصبية ونزق..

قال عزمي:

اهدأ يا أبو اصطيف.. هل بإمكانك أن تأخذني لزيارة البناية.. ومقابلة سكانها..

- طبعاً يمكنني عندما تريد.. ولكن البناية فارغة.. وتركها سكانها..

غداً صباحاً بإمكاننا الذهاب إليها..

- حسناً.. في الساعة العاشرة صباحاً.. سنزور بناية الصوفي.

خرج عزمي وأبو اصطيف من المقهى.. كلٌّ إلى منزله.. كان الغروب قد اقترب.. وقرص الشمس ينحدر في موكب الشفق نحو البحر.. كان منظراً

رائعاً يُرى من مقهى العصافيري، وبدأت حركة المتنزهين على الكورنيش تتزايد حيث اعتاد أهل اللاذقية النزول عصراً للتمتع بمنظر البحر، حيث لم يكن يفصل بينهم وبينه سوى حاجز من الإنشاءات والبنايات.. كانت المقاهي على الماء مباشرة، موسيقى الموج تحدث الإنسان باللغة التي تتكلمها منذ بداية الكون، والإنسان منذ عرف البحر فهم هذه اللغة وتعرف على أسرارها، هي البوح حيناً والهمس حيناً آخر وهي المداعبة والمؤانسة والوصال، وهي الصد والبعد والهجر والفراق، هي موسيقى أرسلها الله يتعلم منها البشر الحكمة من خلق الماء والتراب، إن الإنسان هو ما بين الماء والتراب.. هو الماء والطين.. وهذه الروح التي تسكن في ظلمات الأرحام من ماء مهين نطفة ومضغة وعلقة.. يالروعة الخالق وقدرته، وعظمة الإنسان بما يستطيع فعله لو امتلك العقل والحكمة وسبيل الرشاد.

في المنزل.. استعرض عزمي ملاحظاته المدونة على دفتره الصغير، والده المهاجر.. دراسته في علم النفس.. عودته إلى الوطن.. مقابلته الشيخ النجار في القرية.. احتفالات المولد، استعراض الطرق الصوفية.. وهاهو يعود مع صديقه أبو اصطيف إلى الحديث عن الجن.. وتساءل كيف يغزو الجن بلادنا في المدن والأرياف ويبتعد عن أوروبا.. ما هذا الشرق المملوء والمسكون بالخيال حتى يشكو فائض الخيال الزائد عن الحد، وتساءل لماذا لا يهاجر الجن كما يهاجر الناس إلى أصقاع الأرض طلباً للرزق، وكيف يجد الجن رزقه هنا حيث يشح الرزق ويقل العمل ويزداد البؤس بالنسبة للأهالي.

خواطر كثيرة.. مرت في فكره قبل أن ينام.. وفكّر أن يؤسس مركزاً أو عيادة لمقاومة السحر والشعوذة والمخلوقات الخفية كالجن والعفاريت وغيرها من الأوهام.. وظل في تفكيره حتى غطّ في نوم عميق.

استيقظ عزمي مبكراً في الصباح.. قام ببعض التمارين الرياضية وأخذ حمّاماً سريعاً من الماء الفاتر.. ثم تناول قهوته الصباحية وبدأ ينظر من شرفته المطلة على البحر.. كانت الغيوم البيضاء الوردية اللون تتوسط

السماء.. النوارس تعلو وتهبط في مهرجان احتفالي.. أفواج من العمال تذهب باتجاه المرفأ.. وأصوات البواخر المغادرة تودع الميناء.. ونسيم ربيعي لطيف تغازله رطوبة البحر المقبولة في هذا الفصل حيث تعطي الجسم شعوراً مفعماً بالسكينة والرضا..

في الساعة العاشرة صباحاً وحسب الموعد المتفق عليه مع أبو اصطيف كان عزمي وصديقه قد انطلقا نحو عمارة الصوفي مشياً على الأقدام، لم يكن المكان بعيداً عن سكن الأستاذ عزمي وما إن وصلا حتى استقبلهم حارس البناية الذي لم يكن يسكن بها بل كان يسكن في قبو عمارة مجاورة، كان رجلاً متوسط العمر أشيب الرأس قصير القامة ولكنه كان لمّاحاً وله لسان زلق الكلام، يعرف كيف يحدث الزبائن.

لم يتحدث عن الجن ولا عن أصحاب البناية، بل بدأ الحديث عن نفسه وعن مواهبه الشخصية وعن خبرته في الناس وعن أمانته التي جعلت أصحاب البناية والشقق فيها يوكلون له أمر البناية كلها ومعه مفاتيحها ويعرف كل شيء عنها.

طلب منه الأستاذ عزمي أن يفتح له بعض الشقق في الأدوار السفلى، لبى الطلب دون تذمر ولاحظ الأستاذ عزمي أنه يبقى خارج الشقة، في حين يدخل عزمي إليها، ولاحظ أن أبا اصطيف يقف مع الحارس في الخارج.. وما أن ألح عليه بالدخول حتى انطلق الحارس وأبو اصطيف في رواية أقوال الساكنين عن الجن..

سأل الأستاذ عزمي الحارس هل رأيت شيئاً من الجن؟

أجاب الحارس؟؟ لا ولكن سمعت من السكان.. وسأله مرة أخرى لماذا لم يأتوا الآن؟!

أجاب الحارس.. قل لأصحابها إنني أريد أن أشتري شقة فيها.

تدخل أبو اصطيف قائلاً:

لا يا أستاذ.. لا أحد يسكن في هذه البناية، أنت تتحدى الجن؟!

- نعم أتحداهم.. وأريد السكن فيها.

قال الحارس.. أصحابها يريدون التخلص منها كلها.. وليس ببيع شقة بمفردها

قال عزمي: هل تستطيع أن تجمعني بأصحاب البناية؟

- أجاب الحارس.. نعم.. أعطني عنوانك ورقم هاتفك.. للاتصال معك

قال عزمي.. حسناً.. سأعطيك عنواني.

وأخرج ورقة كتب عليها عزمي منصور ــ شارع الكورنيش ورقم الهاتف.. ثم ودع الحارس شاكراً.. وانطلق عائداً مع أبو اصطيف..

في الطريق كان أبو اصطيف لا يتوقف عن الكلام راجياً الأستاذ عزمي أن لا يشتري شيئاً في البناية وحذره قائلاً:

إذا سكنت في هذه البناية لن يزورك أبو اصطيف اطلاقاً.. أنا والجن في عداوة مستمرة.. ولا أريد أن يتعرفوا عليَّ من خلالك ويلحقوني إلى منزلي والتسلط على عائلتي..

كان عزمي يقابل حديثه بابتسامة ساخرة.. ولا يعلق على كلامه، لأنه كان يريد المحافظة على صداقته وعدم جرح مشاعره..

بعد أيام كان الموعد في مقهى شناتا القريب من عمارة الصوفي على الكورنيش مع أصحاب البناية، كان أصحابها شقيقين جاءا مع بعضهما للتعرف على هذا الزائر الطموح الشجاع الذي يريد أن يشتري البناية..

قال المالك:

بصراحة.. نحن نبيع البناية كما هي في حالتها الراهنة.. ولا ننكر عليك أن المالكين معنا اشتكوا من وجود مخلوقات غريبة لا نعرف ما هي.. تغلق الأبواب والنوافذ.. وتحرك الثريات.. وتطفئ الأنوار أحياناً.. وتحدث ضجيجاً.. أحياناً تبدو أصوات موسيقية وأحياناً أصوات غناء وأفراح، وخليط من الإناث والذكور.. ثم قال له.. هذا ما لدينا والكذب حرام ونحن عائلة تخاف الله.

تحدث عزمي بعد أن شكرهما على الحضور، وطلب منهما الموافقة على بيعه شقة في العمارة. وأنه يتحمل المسؤولية عما يجري له فيها وعلى استعداد أن يكتب تعهد على نفسه بذلك.. وقد وعده المالك بذلك بعد أن يقرر عزمي اختياره لأحد الشقق المعروضة، وقد أقنعه بعدم إمكانيته شراء العمارة كلها وخاصة أن عزمي بعد سكنه فيها سيغري غيره بالشراء.

وقع قرار عزمي بالشراء على "أبو اصطيف" بالخوف عليه وبدت عليه علائم الرفض واضحة وما إن وصلا إلى الرصيف حتى بادره أبو اصطيف قائلاً:

تسرعت يا أستاذ عزمي.. وهل أنت تتحدث بجدٍّ عن رغبتك في السكن في هذه العمارة.

- طبعاً يا أبو اصطيف سأسكن في هذه العمارة وسأبرهن لك أن حكاية الجن خرافة، وأنه لا جن ولا من يحزنون في العمارة، وأنها أوهام وتخيلات.

- استغفر الله يا أستاذ عزمي، أنت وحدك العاقل والآخرون مجانين؟!

ثم أردف أبو اصطيف قائلاً:

لست وحدي يا أستاذ من سمع بالجن أو رآهم، كثيرون غيري يتحدثون عن الجن، والجن مذكورٌ في القرآن، اسأل المشايخ، وعندنا في المدينة عشرات الرجال والنساء ضربهم الجن، البعض شفي منهم والبعض الآخر مازال مسكوناً أو مجنوناً.

قال الأستاذ عزمي:

أبو اصطيف إذا وجدت الجن في الشقة، سأذهب إليك فوراً، وأعتبرك أكثر مني فهماً وأنضج مني عقلاً.. ولكن سأجرّب.. سامحني على ذلك.

قال أبو اصطيف كما تريد، لقد حذرتك وأنت حر.

عاد عزمي إلى منزله، وأخذ يفكر وتساءل من أطلق هذه الإشاعة، ووجد تفسيراً علمياً للحادثة بدراسة الصوت والصدى وانعكاسه من الكازينو

حيث تقام بعض الأفراح فيه وكذلك ضجيج الأصوات في المقاهي المجاورة للبناية، لم يكن الكازينو يبعد وكذلك المقاهي عن بناية الصوفي سوى بضعة أمتار فقط.

وفسر انغلاق الأبواب وفتحها بسبب تيارات الهواء القادمة من البحر وخاصة عند اشتداد الرياح، لم يجد سبباً لتصديق ما يروج من شائعات في المدينة.. ورغب عزمي بالتعرف على الأطباء العاملين فيها، فذهب إلى دليل الهاتف وأخذ يستعرض أسماء الأطباء وأرقام عياداتهم، وقرر الاتصال مع بعضهم للوقوف على الأمراض في المدينة والشائعات المنتشرة فيها وطرأت له فكرة تأسيس جمعية علمية تضم أطباء ومهندسين وأساتذة ورجال قانون أو محامين، واعتبر تأسيس الجمعية عاملاً من عوامل نشر الوعي العلمي في المدينة والريف على السواء.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٤)

لم يكن الشيخ النجار يخاف على الناس من الجن وإيذائهم لمن حولهم فحسب، بل كان يخاف على مهنته التي ورثها عن أجداده والتي تدر عليه دخلاً محترماً - وكان يمتنع عن تعليمها لأحد خارج عائلته بل يختار واحداً من الأولاد ليمارس المهنة من بعده لأنه يعلم أن زيادة عددهم سيجعلهم يتنافسون فيما بينهم مما يؤدي إلى كسادها.

حرص الشيخ على إحضار الفتى فأمره بالنوم على الفراش وإغماض عينيه كي لا يرى شيئاً ثم أمره أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاث مرات ثم ترديد ثلاث مرات بسم الله الرحمن الرحيم.. ثم تلاوة الفاتحة والتوكل على الله.

أما الشيخ فقد تولي تغطيته بغطاء أبيض اللون.. وأمر الجميع بالخروج من الغرفة والوقوف في غرفة مجاورة كان يفصل بينهما نافذة صغيرة مفتوحة لمناولة بعض الأغراض التي يحتاجها الشيخ في غرفة المعالجة.

أما غرفة الشيخ، فيوجد فيها طاقة صغيرة في أعلى الغرفة كي يخرج الجنّ منها بلا عودة.. بدأت الجلسة بقراءة الآيات والأدعية ثم بدأ الشيخ يرفع صوته بحيث يكون مسموعاً في الغرفة الأخرى مخاطباً الجنية قائلاً.. شمروش - همروش - مقدوش أملوخ شميروخ.. اشقالوش.. أقسمت عليكم أن تخرجوا غزالة ابنة شمشيخ وميروش من جسد هذا الفتى عمار ابن خدوج ومحمود.. ويكرر هذا الطلب عدة مرات.. ثم يبدأ الحوار بعد أن يدخل المريض في مرحلة النوم العميق..

الشيخ ما اسمك يا عدوة الله..

اسمي غزالة ابن ميروش وشمشيخ

- وماذا تفعلين بهذا الفتى؟.

- أحبه.. عشقته.. وتزوجته.. ولا أحب مفارقته

- هذا من الإنس وأنت من الجن.. هذا من ماء وطين وأنت من نار.

- شاهدني عارية أغتسل واطلع على عورتي.. وعرف جمالي وأسرار جسدي فخفت أن يتكلم عني بين الناس ويسمع أهلي بالفضيحة ففضلت أن أتزوجه.

- اخرجي يا غزالة وارجعي إلى أهلك..

- سيقتلني أهلي إن رجعت إليهم - يعتبرونني خائنة لأنني عشقت رجلاً من الإنس..

- يا غزالة إذا لم تخرجي سأعذبك بهذه السكين حتى الموت.. ويخرج الشيخ سكيناً مغلقة يضعها على جسد المريض.

تصرخ الجنية غزالة وتستجير.. ثم يوقف الشيخ الجلسة لأن جسد الفتى لا يتحمل العذاب طويلاً..

كان الشيخ يمارس عمله وأهل المريض يسمعون الحوار في الغرفة المجاورة ومن يتاح له رؤية الجلسة من النافذة كان يرى ما يفعله الشيخ دون الإحاطة به ويسمع الحوار بين الشيخ والجنيّة غزالة..

وما إن يخرج الشيخ من الغرفة متعباً بتصبب العرق منه حتى يسارع أهل المريض بالسؤال عن مريضهم وتقبيل يد الشيخ فيطمئنهم ويخبرهم أن الجنيّة غزالة عاشقة ولهانة وأن مريضهم مولع بها.. وتحتاج إلى عدة أيام وعليهم البقاء عنده في المضافة المخصصة للمرضى أو الذهاب إلى قريتهم والعودة عند الجلسات المخصصة بعد أن يعطيهم التعليمات اللازمة بحظر المريض وعدم خروجه من المنزل حتى لا تتمكن منه الجنية وتأخذه إلى الغابات والبراري ليعيش معها وعند ذلك لا أمل بالشفاء..

قرر أهل المريض الذهاب به إلى قريتهم والعودة في موعد الجلسة.. كانت قريتهم تبعد مسافة ساعة سيراً على الأقدام فأسرجوا البغال للعودة.. والمريض مربوط بشكل جيد إلى البغل ويحيط به أخوه ووالده على بغلين آخرين.. وفي منتصف الطريق وأثناء قطع الساقية التي تفصل بين القريتين صرخ المريض.. هذه هي.. هذه هي.. إنها غزالة.. ألا تشاهدونها.. إنها ركبت خلفي على البغل وهي تضمني وتقبلني.. فانطلق الوالد بقراءة القرآن في حين نزل أخوه عن البغل وأمسك به خوفاً من أن تنتابه حالة هيجان.. وأنزله عن البغل وذهب به إلى ظل شجرة وتركه ممدداً فوق قطعة من قماش وقام بتغطيته بملاءة بيضاء بعد أن رش وجهه بالماء وطلب منه أن يقرأ الفاتحة والمعوذتين.. ثم خلد المريض إلى النوم قال الوالد لابنه: كان من الأفضل أن نبقى عند الشيخ..

أجابه الابن.. أتريدنا أن نرجع إليه ونحن في منتصف الطريق؟.. لكن الوالد رأى متابعة السير إلى قريتهم لأن الشيخ قد لا يكون لديه أماكن للمبيت في المضافة. وهكذا تابعوا سيرهم إلى القرية بعد أن استعاد المريض هدوءه..

خرجت الأسرة والجيران لاستقبال المريض ووالده وكلٌّ يطمئن عليه.. وعندما اجتمعت الأسرة روى الوالد ما سمعه من الشيخ أثناء الجلسة عن الجنية غزالة وهيامها بولده واقترانها به.. كما طمأنهم أن الشيخ محمد قد وعدهم بإخراجها ذليلة مهانة وتحرير ولده الفتى من عبودية الجن...

أما عزمي بدور الوافد إلى القرية فلم يقف في قرية أرض الجن أمام رفض الشيخ محمد النجار حضور الجلسة أو إعطائه أي سر من أسرار المهنة.. ولما علم برجوع المريض إلى قريته ذهب في اليوم التالي إلى قرية "المرج" قرية المريض.. وسأل عن عائلة عمار محمود فأخذه أحد القرويين إلى المنزل.. وما أن رأى والده حتى قدم نفسه أنه الأستاذ عزمي منصور من قرية "أرض الجن".. وأنه درس في أوروبا علم النفس.. وأنه يقدم خدماته مجاناً لمن يطلب المساعدة.. وأنه درس في أوروبا التحليل النفسي ويريد أن

يقابل المريض لتوجيه بعض الأسئلة وأنه سيضع الحلول لمساعدته على الشفاء..

نظر والد عمار في وجه عزمي منصور قائلاً:

- هل أنت دكتور؟

- كلا لست دكتوراً.. ولكن أنا درست علم النفس في أوروبا.

- علم النفس..؟!.. وهل يعرف النفس إلا الله الذي خلق الأنفس.. والله وحده يعرف ما في النفوس.. وهو يتوفى الأنفس عند موتها.. ويحاسب النفس الأمّارة بالسوء.. ما هذا الذي تقوله يا أستاذ.. هل أنت مجنون؟!

- أنا لست مجنوناً.. هناك علم اسمه علم النفس.. وهناك الطب النفسي.. وأنا لديَّ اهتمام بذلك.. أريد مساعدتكم..

قال الوالد اذهب يا أخي من وجهي.. ولا تجادلني فيما لا أؤمن به.. إننا نتعامل مع الشيخ محمد النجار.. وهو الذي يساعدنا بشفاء ولدنا.. وقد وعدنا بذلك.

أخرج عزمي دفتره الصغير الذي يدون فيه ملاحظاته وجلس على شرفة المنزل المطل على البحر استعرض الأيام التي قضاها في الوطن، وذهب بفكره إلى ألمانيا، وتساءل مع نفسه أما كان من الأسهل عليّ العمل في مراكز ومختبرات علم النفس في ذلك البلد المتقدم بدلاً من العمل في هذه المنطقة من العالم، لقد سكنت في المدينة وسمعت كلام أهلها ورأيت أناسها الطيبين، ولماذا حكم عليهم أن يبقون في الجهل والخيال والأوهام، أما آن لهؤلاء المتسلطين والمشعوذين أن يرفعوا أيديهم عنهم، لقد اشتريت الشقة في عمارة الصوفي وجعلتها مكتباً لي ووضعت مكتبتي فيها، ومضت أشهر دون أن يزورني الجن أو أن أراها وأتردد على مكتبي في الليل والنهار واستقبل أصدقائي الأطباء فيها، ونعقد اجتماعات الجمعية العلمية فيها..

رأى على دفتره بعض عبارات أبو اصطيف الذي كان يرددها وحزن لأن أبو اصطيف قد انقطع عنه، وحاول عزمي أن يزور هذا الصديق الطيب

ابن البلد.. ولكن أبو اصطيف لم يكن يتردد على الأستاذ عزمي، لقد أحس بالهزيمة والانكسار أمام عزمي وانحيازه للعلم والمنطق.. استعرض ما لاقاه في القرية من نفور من جمهورها ومن إشفاق على أهلها ووجد أن الريف والمدينة بحاجة إلى نهوض.. ولكن ما العمل في خضم هذه الصعاب ووسط الجماهير المغرقة في الخرافة.

نظر عزمي إلى البحر، كان البحر يريح نفسه، ويشكل متعة للتأمل، ولكنه عاد مرّة أخرى بذاكرته للقرية والمرضى الذي يترددون على عيادة الشيخ محمد النجار في قرية "أرض الجان" إنهم مرضى نفسيون، بحاجة إلى علاجٍ نفسي، وتذكر قصة الصبيّة التي ادعت الجنون كي تهرب من عشقها لحبيبها، الجنون لا يعاقب عليه لأنه عمل لا إرادي، السبب فيه هو الجن، أما الحبّ فهو حرام لأنه عمل إرادي والحب مرفوض في هذا المجتمع ولو كان بقصد الزواج.. مساكين هؤلاء الأبرياء الذين يموتون من العذاب أو يموتون من الوهم.

عمار هذا الفتى الوسيم الذي رآه محمولاً على البغل كالحصير الملفوف إلى الشيخ النجار، ومنعني والده من التحدث إليه، ومنعني الشيخ النجار من المناقشة معه في مرضه وإجراء التحليل النفسي عليه، أليس معرّضا للموت كالصبيّة التي ماتت من الحب دون أن يفهمها أحد، ربما تكون عقدة هذا الفتى النفسية ناتجة عن كبت جنسي، أو عن رغبة مقموعة لم يستطع أن يحققها في جو تسلط الأب وقسوته وسط عوامل الفقر والحرمان.. انصرف عزمي منصور بائساً بعد أن فشل في إقناع الوالد أن يسمح له بلقاء ولده المريض عمار، ولكنه صمم على أن لا يسمح لليأس أن ينتصر عليه.

(٥)

نظر عزمي إلى البحر.. واعتبره خزاناً من الأسرار للعشاق والمغامرين والطامحين والمقاتلين إنه يحوي في جوفه آلاف القصص والحكايات، وكلها ترقد في الأعماق تنتظر يوم انكشاف السر عنها، عظام الموتى، السفن الغارقة، أسلحة المحاربين، الجواهر والكنوز التي غرقت وثورته، غموضه ووضوحه وفوق هذا تيارات وأمواج وشيء كامن لا يفصح عما فيه، وشيء يطفو على السطح فتراه العين ويفسره العقل كيفما يشاء.

فجأة سمع عزمي أصواتاً تعلو في الشارع وجماعات تذهب نحو صخرة في شمال الكورنيش كان عدد الناس يتزايد ساعة بعد ساعة، ثم رأى عربة إسعاف تتجه باتجاه الجمع وسيارات للشرطة تنطلق نحو المكان. لم يستطع أن يفهم ما هو الموضوع ولم يعد أبو اصطيف يزوده بأخبار اللاذقية اليومية، أسرع إلى الداخل وارتدى ثيابه وقرر أن يستطلع الموضوع بنفسه.

استوضح عزمي بعض المارة، قال أحدهم: وجدوا سيدة في العقد الرابع من عمرها تطفو على سطح الماء، ولا يعرفون سبب الغرق، هل هو انتحار أم أن أحداً قتلها ورماها في البحر، التحقيقات جارية، والطبيب الشرعي ووكيل النيابة والشرطة تعالج الموضوع، وسينقلونها إلى المشفى للتشريح والتعرف على أسباب الوفاة.

تابع عزمي السير نحو المكان، سأل أحدهم ما الأمر أجاب قائلاً بلهجة ساخرة:

امرأة مجنونة رمت نفسها في البحر وغرقت

قال عزمي وكيف عرفتم أنها مجنونة؟!

الناس قالوا ذلك، وإن زوجها كان يضربها ويطردها من البيت، وكانت تدور في الشوارع وتنام على الأرصفة.. قال ذلك لعزمي وانصرف.

حاول عزمي أن يصل إلى الغريقة ولكن الشرطة منعته من ذلك، فعاد إلى منزله وراح يسجل في دفتره "امرأة مجنونة، كان زوجها يضربها ويطردها من البيت فتخرج في الشارع وتنام على الأرصفة".

يا إلهي ما هذا المجتمع، ما هذا التسلط، ألا توجد جمعية نسائية أو مشفى للأمراض العقلية والنسائية أو عيادات خاصة لمعالجة العلاقات الزوجية المضطربة، كم هي مظلومة هذه المرأة، هل لها أولاد، وكيف حالهم وما هي أعمارهم، من هذا الزوج القاسي ذو القلب الحجري..

في المساء، عرض الأستاذ عزمي على الجمعية العلمية في مكتبه في عمارة الصوفي، موضوع الانتحار، أسبابه وعوامله وكان مما جاء في الموضوع:

"الانتحار هو حالة يأس من الحياة ينشأ من عوامل إحباط نفسي قد تكون من مؤثرات داخلية أو خارجية تتفاعل تبادلياً وقد تكون من عوامل وراثية عصبية أو نفسية مكتسبة ويجب تناول الأدوية المهدئة بحذر شديد بإشراف طبي كامل"

احتدم النقاش في الجمعية عن أسباب الانتحار في المجتمع الشرقي وأسباب الانتحار في المجتمعات الغربية، وذكر الأطباء بعض حالات الانتحار في المدينة، واتفق الجميع على القيام بحملة توعية.

في اليوم الثاني كان زائر الأستاذ عزمي الأول أبو اصطيف بعد انقطاع طويل، وراح يروي بعد أطراف الموضوع أسباب انتحار هذه السيدة، واسمها واسم زوجها، كانت الخلاصة من الرواية أنها كانت جميلة جداً وأن الزوج شديد الغيرة، كان يمنعها من الخروج من المنزل من الخوف عليها، وكان يضربها باستمرار ويتهمها بالخيانة وأخيراً اتهمها بأن جنيّاً قد سكنها وأصبحت مجنونة وصدق الناس الزوج في روايته.. ومن العذاب واليأس

وضعت حداً لحياتها بإلقاء نفسها ليلاً في البحر حتى لا يراها أحد في الظلام..

كان عزمي ينصت باهتمام لـــ(أبو اصطيف، وكان حزيناً بما يسمعه من روايته، ولكنه كان سعيداً بعودة (أبو اصطيف) إليه، لقدجاء ليؤكد أن للجن علاقة في الموضوع ولكن عزمي كان يتمنى لو تعرّف على الرجل وزوجته قبل أن تصل إلى هذه الحالة المحزنة التي انتهت إليها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٦)

بعد يومين من الراحة عاد المريض ووالده إلى الشيخ محمد النجار، ولم يشأ أن يذهب بدون تقديم الهدايا للشيخ مكافأة على جهده في علاج ولده.. وكان الشيخ محمد النجار لا يطلب أجراً من المريض ويعتبر ذلك واجباً أمام الله، ويقول: إن الله كافأه بإعطائه سراً من أسراره ولذلك لا يتقاضى أجراً على الواجب ويترك أجره على الله.. أما الأهالي فكانوا يتركون للشيخ الهدايا وأحياناً بعض المال أجرة مصاريفهم في مضافته من طعام وشراب وكان الشيخ قانعاً بذلك، فالهدايا وبعض المال يكفيان لاستمراره بأداء الواجب..

حمل عمار ووالده البيض والدجاج وبعض القمح والفواكه معهم في طريقهم إلى الشيخ لمتابعة العلاج، وحمد الله الوالد على أن الرحلة تمت بسلام ولم يقم عمار بأي إزعاج لهم على الطريق.. ومن الصدفة أن عزمي منصور قد وجدهم عند دخولهم القرية فسار معهم إلى منزل الشيخ وفي الطريق.. كان عزمي يوجه أسئلته إلى المريض.. ويسأله أسئلة كادت أن تفجر غيظ الوالد من مثل.. هل عشقت يا عمار إحدى بنات القرية؟ أو قل لي يا عمار هل تفكر بالجنس؟ وهل مارسته سابقاً..؟

كاد والده أن يضرب عزمي منصور بالعصا صارخاً في وجهه، ابتعد عنا أيها المجنون قليل الأدب.. نحن أناس محترمون.. أعوذ بالله منك أيها الشيطان.. ابتعد من طريقنا وإلا حطمت رأسك بهذه العصا..

أما عزمي منصور.. فكان يردد سامحني يا أخي.. أنا لم أقل شيئاً.

- لم تقل شيئاً.. تسأل الولد هل مارس الزنى.. وهل عشقت بنات الناس.. حرام عليك ترضى على نفسك أن تكون زانٍ.. وترضى أن يعشق أحد أختك أو زوجتك؟

- أنا لم أقصد ذلك.. أقصد هل له تجربة غرامية مع النساء؟.

- تجربة غرامية.؟ مرة تقول تجربة جنسية.. ومرة تجربة غراميّة قل بصراحة ماذا تريد؟

ــ أريد مساعدة عمار بالشفاء من المرض.

ــ اذهب من وجهي.. إنك كالذباب الكريه الذي يطاردنا في البيت والحقول.

كان عمار ووالده قد وصلا إلى منزل الشيخ.. فأمر ابنه الآخر بإنزال الهدايا عن البغال.. بينما اهتم الوالد باصطحاب عمار إلى عيادة الشيخ.. وما أن علم الشيخ بتصرف الوالد مع عزمي منصور في قرية المرج وزيارته لهم.. وتصرفه معه في مدخل القرية في الطريق إلى منزل الشيخ حتى انفرجت أسارير الشيخ محمد وأطلق لنفسه الحديث عن تصرفات عزمي وتطفله وتدخله في حياة القرية.. واعتبره لعنة حلّت في القرية وخاصة بعد انتقاده لزيارة أضرحة أولياء الله ووضع البخور عليها مما جعله في مشاكل لا حصر لها مع أهالي القرية، غير أنهم يتحملونه لأن عائلته من أقدم العائلات في القرية وأن كبار السن من المعمرين في القرية يتحدثون عن والده ماجد منصور المعروف بالشجاعة والشهامة قبل هجرته من القرية.

سأل الشيخ عن مريضه عمار وكيف تصرف في الأيام الماضية.. وشرح الوالد ما جرى له في طريق العودة وطمأنه عن هدوئه في بقية الأيام فابتسم الشيخ قائلاً:

كنت أتوقع ذلك.. لأن غزالة بعد الجلسة الأولى وما لاقته من العذاب على يدي هربت إلى الساقية.. وعندما وجَدْته أمامها عادت إليه لأنها تحبه.. ولا ترتوي من مواقعته - لأنها جنيّة شبقة.. ثم شكرهم على الهدايا.. وطلب منهم المبيت عنده ليتفرغ لمعالجة عمار وطرد هذه الجنيّة الشرسة من جسده.

عيادة الشيخ محمد كانت حافلة بالمرضى من النساء والرجال ومن أعمار مختلفة ومن قرى متعددة.. وكان منهم من يأتي ويسافر في نفس اليوم

ومنهم من ينام فهناك صالة للرجال وصالة للنساء وعائلة الشيخ وأتباعه يقومون بالخدمة والحراسة والإطعام..

حكايات شتى يرويها الأهل عن مرضاهم.. كل يسأل بدافع الفضول أو المعرفة.. وكل يأخذ قصص الآخرين إلى قريته فتنعقد المجالس وتدور النقاشات..

أحدهم روى أن صبية رائعة الجمال قد مسّها الجن فجاء أهلها إلى الشيخ.. وروت للشيخ ما لاقته من عذاب على يد أهلها من جلد بالسياط والعصيّ.. فادعت الجنون وساحت في البراري وفي جلسة مع الشيخ قالت له: إنها أحبت شابّاً في القرية.. ورفض أهلها تزويجها منه لأنهم في خصام مع عائلته كانت تلتقي سرّاً معه ويخططان للزواج عند انتهاء دراسته.. وما أن علم الأهل حتى انهالوا عليها ضرباً وهدّدها أخوتها الشاب بالقتل فهرب إلى أقاربه في المدينة.. ورجت الشيخ أن لا يفضح أمرها.. وهي ستقول لهم إنها شفيت من الجنون..

ولما سألها الشيخ لماذا فعلت بنفسك هكذا.. ألم يكن لديك طريق آخر غير ادعاء الجنون؟! قالت للشيخ: هذا الطريق الوحيد الذي يخلصني من العذاب والموت. إنهم يخلطون بين حبي لحبيبي وحبي للجنيّ الذي اخترعته.. وعندما يعرف الناس بجنوني لا أحد يقبل على خطوبتي أو الزواج مني.. وهكذا أبقى مخلصة لمن أحببت ولو بقيت بدون زواج مدى عمري وأبقى أتجرع كأس العذاب حتى موتي.. إذا استحال زواجي من حبيبي.

أعجب الشيخ بذكائها ووعدها بستر أمرها.. وأن يقول لأهلها بطريقة غير مباشرة إن الجن سيعود إليها إذا لم يتزوجها رجل تحبه ويحبها وهكذا يتغلب الحب على الجنّ.

وقصة أخرى أن امرأة تزوجت من رجل أحبّها وأحبّته.. وبعد مدة تزوّج من غيرها وهجرها فأصبحت تتردد على العرافين لمعرفة ما حصل لزوجها الذي هجرها.. فقال لها أحدهم: إن الزوجة الجديدة قد استخدمت الجن

للوقيعة بينه وبينها.. وهكذا أصبحت الزوجة القديمة مهمومة مسكونة بالجن تتردد على عيادة الشيخ محمد النجار لكي تتحرر من عدوان ضرتها التي خطفت زوجها وتركتها مُلكاً مشاعاً لجنيّ يلازمها ويتحكم في سلوكها..

قصص وروايات لم يكن عزمي منصور بغائب عنها.. كان يسجلها في دفتر صغير يلازمه ويأخذ أسماء المرضى والعناوين بطريقته الخاصة من المقربين من الشيخ النجار ولكن كان لا يستطيع فعل شيء لوقوف الرأي العام ضده.. ولشعبية الشيخ النجار ومكانته الدينية والاجتماعية بينهم.. كان يراهن على الزمن.. وعلى من يأتي في المستقبل للتعاون معه في حل أزمة الجن مع البشر التي لم يسمع عنها في أوروبا.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٧)

جاء حارس القرية إلى الشيخ محمد النجار يدعوه إلى اجتماع مع مدير الناحية في بيت المختار.. والشيخ لم يتعود على حضور اجتماعات ممثلي الدولة، وتساءل لماذا يدعوني المختار للاجتماع مع مدير الناحية - وماذا سيقول لنا مدير الناحية أو يطلب منا.. وخاصة أن الحارس أخبره بأن رجال الدرك يرافقونه في هذه الزيارة.

كان السائد في قرى المحافظة أن يأتي ممثلو الدولة في طلب الأشياء التي لا ننتهي من القرويين فهناك جولة لرجال الحراج.. وجولة لموظفي الحبوب من أجل ضريبة الإنتاج.. وجولة لموظفي المالية لجباية ضرائب الحيوانات والعقارات.. وهناك جولة لموظفي مكافحة تهريب التبغ.. وجولة من أجل جمع المطلوبين إلى التجنيد والهاربين من الأحكام.. وجولات وجولات، كلهم يطلبون دفع الرسوم والضرائب والهدايا والولائم لدرجة أصبح الفلاح يفضل ترك بيته والعيش مع الوحوش في الغابات، والأكثر من ذلك سوق الفلاحين إلى السخرة على الطرقات ورصفها وإنشاء العبّارات والجسور حيث لا طريق إلا الطرق التي تخدم الحكومة وكبار الملاك المتنفذين.

استأذن الشيخ مرضاه ورافقه ابنه الأكبر الشيخ عليّ ليطمئن على الوالد.. وفكر الشيخ متسائلاً أن يكون أحدهم قد اشتكى على الشيخ من ضرر أصابه ويدعيه حتى يكسب بعض الشهرة أو المال وانصرف ذهنه إلى عزمي منصور ذلك المتطفل الذي لا يكف عن مطاردة الناس وأسئلتهم وما أن وصل الشيخ إلى مكان الاجتماع حتى وجد معظم وجهاء القرية قد سبقوه للاجتماع حتى تنفّس الصعداء، فاستقبله المختار باحترام وأفسح له الجالسون مكاناً في صدر الاجتماع جلس به بعد أن تبادل التحية مع مدير الناحية والحاضرين.

بدأ مدير الناحية الحديث عن دور القرية في الناحية وضرورة ربط مركز الناحية بالطريق العام الذي يصل الناحية بالطريق الرئيسي، قائلاً: إن المسافة سبعة كيلومترات وقد قررنا أن نرصف في كل سنة بضعة كيلومترات بحيث ننهي العمل فيها خلال عامين.. وسيكون مدير المنطقة والمحافظ مرتاحين لهذا الإنجاز ومطلوب من كل مواطن أن يشتغل مجاناً على الطريق خمسة عشر يوماً.. يختارهم بالتفاهم مع المختار وسيقوم الدرك باصطحاب الشغيلة يومياً إلى مكان العمل ليوزعوا على كل قرية مسافةً من الطريق والذي يتخلف سنقوم بسجنه في الناحية يومين سجن عن كل يوم يتخلف فيه المواطن عن العمل..

قال أحد الوجهاء.. ألا يمكن دفع بدل نقدي عن كل يوم شغل؟!

أجاب المدير طبعاً.. ونحن نؤمّن عاملاً بالأجرة بدلاً منه. والأجرة تدفع في الناحية.. لم يعترض أحد على كلام مدير الناحية.. وتوجه مدير الناحية للشيخ محمد النجار قائلاً: نريد يا شيخ محمد مساعدتك في توجيه الأهالي وتخويفهم بالجن.. وسأله مازحاً بقوله هل مازال لدينا جن في الناحية؟.. اتصل مع رئيس المخفر ليطلق النار عليهم.. وأطلق ضحكة عالية..

انصرف الجميع إلا من استبقاه المختار على الغداء مع مدير الناحية، وكان المختار يفرض أتاوة على الفلاحين من البيض والسمن والدجاج عند قدوم المسؤولين في الدولة. أما الشيخ محمد النجار، فقد انسحب مسرعاً وعاد إلى عيادته لمعاينة مرضاه من القادمين والمقيمين.. وفي الطريق قال لابنه الشيخ علي. الحمد لله لم نشاهد عزمي منصور عند المختار فأجابه ابنه..

- عزمي منصور؟! رأيته يمشي على الطريق قائلاً إنه سيذهب إلى المدينة..

طلب الشيخ محمد الشاب عمّار محمود إلى الجلسة.. وبقي والده وأخوه في الغرفة المجاورة وبعد حديث قصير معه.. مدده على الفراش كالعادة.. وفي هذه المرة كان صوت الشيخ قوياً وتهديداته بسحق الجنيّة غزالة حاسمة

إذا لم تخرج من عمار خاضعةً ذليلة.. وقد سمع الحاضرون صوتها من خلال عمار المنوَّم خارج الوعي تقول: إنني أموت ولا أتركه وتسأل الشيخ كيف تفصلني عن زوجي.. والشيخ يهددها بالويل والثبور وعظائم الأمور ويقسم عليها بالخروج من إصبع قدمه.. أما والده وأخوه والحاضرون فتتسارع ضربات قلبهم مستبشرين بالأمل بانفراج الأزمة وخروج هذه الجنيَّة المهووسة في معاشرة الرجال من بني آدم خروجاً بلا رجعة.

كان الوالد يخشى على ولده إذا طال عنادها وطالت الجلسات أن يضعف جسد المريض. وقد سمع الحديث من غيره أن شاباً من قرية بعيدة وقعت في حبه جنيَّة من بلاد القوقاز وأصرت على عشقها.. فأضعفت جسد المريض وقلبه من ممارسة الجنس معه.. ومات ذات يوم تحت يد الشيخ حيث لم يتحمل قلبه ضغط الجلسة وعذاب الجنيَّة فتحول إلى جثة هامدة ولفظ أنفاسه بين يديه..

كان الأهل يتوقعون هذه النتائج ويتقبلونها لأنها مشيئة الله بابتلاء الإنسان في قصاص في الحياة.. حيث إن إيمانهم وتسامحهم واقتناعهم بما كتبه الله كانت وسيلتهم الوحيدة لتقبل المصائب ومن ثم الصبر والسلوان في المستقبل.

عزمي منصور العائد من أوروبا والذي تعين أستاذاً للفلسفة وعلم النفس في ثانوية المحافظة كان مهموماً ومشغولاً بقصص هؤلاء الفلاحين ومشاكلهم في قريته والقرى المجاورة وقد لاحظ أن معظم مشاكل الأهالي مع الجن بسبب العشق والجنس، أما الباقي فهو تنافس الإنس والجن على موارد الرزق في الأرض.. ولذلك كان يسجل جميع المشاكل وقد استطاع تقسيمها إلى أقسام ثلاثة هي صراع الحب والجنس.. وصراع الجن مع الإنس على موارد الرزق، أما الثالث فهو صراع الأهالي مع الحكومة وأزلامها..

وهناك مشكلة شيخ القرية ففي كل قرية شيخ يشبه الشيخ محمد النجار ولكن باختصاص آخر، فهذا يقنع الأهالي بخدمته لأحد الأولياء الصالحين وهو

وسيط وحيد بين الولي الصالح وبين المواطنين فلا تقبل زيارة الولي الصالح أو نذوره أو توسلاته إلا عن طريق الشيخ.. وقد ذاع صيت المشايخ في خدمة الأولياء الصالحين.. فهذا مسؤول عن الولي الصالح المعروف بشفائه للحصبة وذاك للشلل وآخر للحمى وأمراض الكبد.. وهذا مسؤول عن طرد الجن من الإنسان.. لقد كانت تجربة عزمي منصور مع الشيخ محمد النجار صعبة وقد جرّت عليه سخط الأهالي في قريته.. إلا أنه كان عنيداً وصبوراً ولم تشغله الوظيفة عن زيارة القرية والقرى المجاورة والتقرب من الأهالي ومحاولته إقامة علاقات صداقة مع الطلاب من الفتيان في المدارس الإعدادية والثانوية وأقام صداقة مع بعض معلمي المدارس الابتدائية.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٨)

كان الشيخ محمد النجار يتابع جلساته مع المرضى.. وفي الوقت ذاته يذهب برفقة المختار إلى الأهالي لدفع لوائح الرجال للعمل في السخرة على الطريق كما وعد مدير الناحية.. وقد حدث إشكال بين المختار وبعض الذين دفعوا أموالاً لكي لا يذهبوا إلى السخرة.. طلب بعضهم إيصالاً من المختار بالمبالغ المدفوعة وأقسم المختار أنه سلّم المبالغ لمدير الناحية شخصياً، ولكن مدير الناحية لم يعطه إيصالات، وقال له: ألا تثق بنا يا مختار؟ هذه الأمور لا تطبع الدولة إيصالات بها ومن يسألك عن الإيصالات أرسله لي لأعطيه إيصالاً على ظهره بهذا الكرباج.. فما كان من المختار إلا السكوت.. وقال المختار من لا يصدقني فليذهب معي إلى مدير الناحية وليشهد عليَّ الشيخ النجار بما أقول..

طلب الشيخ من الحاضرين مسامحة بعضهم وعدم إعلام مدير الناحية بالمدفوع.. وأثناء الاجتماع قال المختار للشيخ النجار على انفراد بأن عزمي منصور زار مدير الناحية وشكى له استغلال المشايخ للفلاحين وادعائهم بطرد الجن من الإنسان ومعالجة المرضى عن طريق الأولياء الصالحين، وطلب من مدير الناحية المساعدة في تحرير عقول الناس من الخرافة والأمور التي تتعارض مع العقل والعلم وسأله الشيخ.. وماذا كان رأي مدير الناحية يا مختار؟

أجاب المختار.. أن مدير الناحية قال: اترك هذا الموضوع وإياك وإثارة المشايخ أو التعرض لمعتقدات المواطنين.. وإلا اعتبرتك تثير الشغب وتدعو إلى الفتنة وتقسيم الشعب.. فما كان من الشيخ النجار إلا شكر المختار وشكر مدير الناحية.. ثم انطلقا للاجتماع بالرجال الذاهبين إلى السخرة هذا الأسبوع..

في مقدمة الحاضرين كان علي أبو خليل.. وعليٌّ هذا كان في شبابه من أجمل شباب القرية ومن أسرة تملك ملكية واسعة ولكنه صرف شبابه في اللهو والشراب وزواج النساء.. وباع معظم أملاكه ولم يتخلَّ عن وجاهته في القرية.. كان يدفع المال ولا يذهب إلى السخرة.. وكان لديه خادم من قرية على حدود البادية.. كان قوي البنية مفتول العضلات.. اشتهر برفع الأثقال.. كان شديد السمرة لوّحته شمس البادية وأعطته قوةً استطاع أن يمسك بثوْرٍ هائج من قرنيه وأن يبطحه أرضاً.. قال علي أبو خليل سأرسل معكم حمّود السلّوم بَدلاً مني.. وطلب من المختار أن يكتب حمّود السلّوم بدلاً من علي أبو خليل..

وفي المساء أعلم أبو خليل خادمه حمّود بالذهاب غداً مطلع الشمس مع رجال السخرة الذاهبين من القرية وهيّأ له ماء وطعاماً لاصطحابه في رحلة السخرة الإجبارية..

كان الطريق بين القرية ومكان العمل حوالي أربعة كيلومترات مشياً على الأقدام.. يقطعها الذاهبون من القرية بالغناء تارةً وبروايةِ الأحاديث على الطريق تارة أخرى.. وكانت أدواتهم التي يحملونها الفأس والمعول - أما الجرارات والزفت والمدحلة فكانت تقدمه إدارة الأشغال.. وعلى الطريق ينتظر رجال الدرك.. والمهندس المختص والعمال الفنيون.. ويبدأ العمل في استلام جدول المختار والتأكد من الحاضرين وأسمائهم ثم يُسلّم كل واحد منهم حصته من الطريق..

حمود السلّوم كان قوياً كالبلدوزر ما أن استلم الفأس حتى حفر مسافة في الطريق لم يستطع ثلاثة عمال اللحاق به.. وكان يرتاح لبضعة دقائق حتى يلحق به الآخرون.. وما أن رآه الدركي واقفاً عن العمل حتى أسرع إليه قائلاً.

- يا حمار مالك تقف كالعمود الأسود بدون عمل؟ يا ابن الـــ...

أجاب حمود السلّوم.. أنا عملت عمل ثلاثة رجال.. انظر وراءك- أنا عليّ الحفر وهم عليهم التعزيل.. فما كان من الدركي إلا أن صرخ به قائلاً

أترد عليَّ أيها العبد الأسود.. خذ يا ابن الكلب.. وصفعه على وجهه.. شعر حمود السلوم بإهانة بالغة من تحقيره باللون الأسود ووصفه بالعبد.. وابن الكلب.. فغضب وضرب الدركي لكمةً أوقعته على الأرض فحمله إلى الخندق ورماه فيه، ثم جاء الدركي الآخر لنجدة زميله فقابله حمود بلَكمة أفقدته توازنه ثم انقض عليه وجرده من سلاحه وذهب للدركي الآخر فجرده من سلاحه أيضاً.. وحمل سلاحهما.. وأخذ يعدو كالحصان هرع الرجال لإسعاف الدركيين بعد أن أذلّهما حمود أمام عشرات الرجال.. وجَرت فوضى أوقفت العمل على الطريق.

وصل حمود إلى منزل علي أبو خليل وروى له الواقعة وترك له سلاح الدركيين.. وودعه إلى حيث سيبقى طريداً في دنيا الله.. أما علي أبو خليل فوقف مرتبكاً لا يعرف ماذا يفعل.. وخاف من عواقب تمرد حمود فحمل سلاح الدركيين وسلّمه للمختار بعد أن أعلمه بما رواه حمود عن الحادثة وقبل أن يغادر علي أبو خليل بيت المختار وصل بعض الذين كانوا مع حمّود على الطريق يروون الحادثة كما حصلت ويلقون باللوم على الدركي الذي أهان حمود وضربه ووصفه بالعبد الأسود فانتقم حمود لكرامته وشعوره بالظلم لأنه لم يكن مقصراً في العمل وقد سمحت له قوته الجسدية وإخلاصه في العمل بإنجاز ما لم يستطع ثلاثة رجال إنجازه.. وما هي إلا فترة وجيزة حتى وصل رئيس المخفر ومعه قوة من الدرك في طلب حمّود ومعرفة الجهة التي هرب إليها أجاب علي أبو خليل عن المعلومات التي يعرفها عن خادمه، فلم يكن يعرف عنه سوى اسمه حمّود السلوم ولا يدري إذا كان هذا اسمه الحقيقي أم أنه اسم اختاره لنفسه وليس لديه هويّة شخصية كل ما يملك شهادة تعريف مكتوبة بخط اليد من أنه حمود السلوم ابن جديع وعمشة.. ومن سكان بادية حمص.. وأنه ترك السلاح.. وولى الأدبار..

تنفس رئيس المخفر الصعداء عندما علم بوجود سلاح الدركيين وهدأ باله فهذا أهم ما في الموضوع، فلا شيء أخطر لدى الحكومة من سرقة السلاح وبقائه في أيدي الخارجين على القانون. وأخرج سيجارة أشعلها وراح ينفث دخانها وهو يتأمل السلاح..

لم يضعوا أية مسؤولية على مخدومه علي أبو خليل وشكره رئيس المخفر على أخذ السلاح من حمود.. وانصرف رئيس المخفر والدرك.. في حين كانت الشماتة بالدرك واضحة عند الأهالي والاعتزاز الضمني بما فعله حمود بهم.. وروى بعضهم أنه كان أشبه بعنتر بن شداد فكلاهما أسمر اللون وقويَّ البنية ومن أشجع العرب وكانا يعيّران بأنهما عبيد..

أما نساء القرية فكنَّ يتحدثن عن أزواجهن وكيف كان الدرك يضربونهم بالكرباج وتمنت كل واحدة منهن أن تعطي حمود بعض الطعام في مسيرة هربه الطويلة.

أما المختار، فكان يقول للدرك كل ما جاؤوا للبحث عنه.. إنه ذهب إلى البادية حيث يعيش بين عشيرته باسم آخر ولا يعرفون عما فعله حمود شيئاً.

تلقى عزمي منصور تمرد حمود السلوم بمزيج من الفرح والاهتمام فقد كان مغرماً بدراسة الظواهر الاجتماعية وأسباب التمرد والعنف والانحراف.. كان عزمي لا يخفي انزعاجه من الظلم والتخلف والتهميش في المجتمع الذي ينتمي إليه وكان يحاول أن يجد له أنصاراً يتعاونون معه لتطوير المجتمع ويحاربون العادات السائدة والاستسلام للحالة الراهنة وشعور هؤلاء الفلاحين بأن الجن يطاردهم والمتنفذون يظلمونهم والحكومة تستغلهم ولذلك قرر أن يزور القرية ويلتقي مع علي أبو خليل ليسأله عن مخدومه حمود السلوم وليجتمع بالمختار لمعرفة إلى متى تظل القرية تعمل في السخرة على طرقات الحكومة تحت ضرب السياط من الدرك..

كان الجو يوحي بالمطر، غيوم داكنة تحجب الجبال عن النظر وهواء مشبع بالرطوبة يحرك الأشجار والنباتات.. والسكون يخيم على القرية.. وأزقة القرية وساحاتها تتجول فيها بعض الحيوانات.. والكلاب.. بينما طيور الدجاج والحمام تلوذ بالأماكن المخصصة لها. توجه عزمي منصور إلى بيت علي أبو خليل.. كان البيت قديماً مبنياً من الحجارة والطين يتألف من دار فسيحة وغرفتين ويدخل إليها من باب خشبي قديم.. وكان علي أبو خليل قد

فقد زوجته وماتت ابنته الوحيدة واضطر أن يتزوج أرملة لم تنجب أولاداً وكانت في الخمسينات من عمرها.. كان أبو خليل مرِحاً حاضر البديهة يحب النكتة ويرويها وكان زجالاً ينظم الشعر.. وكثيراً ما كان يلجأ إلى مداواة بؤسه بشرب كأس من العرق ينسيه أحزانه اليومية.

طرق الباب الخارجي.. فسألت الزوجة من على الباب؟

قال عزمي منصور.. أنا الأستاذ عزمي

عادت الزوجة تقول لزوجها.. الأستاذ على الباب

قال علي أبو خليل: أنت مجنونة.. الأستاذ؟ أي أستاذ هذا الذي يأتي إلينا يا منصورة؟!

نهض علي أبو خليل وفتح الباب قائلاً.. نعم.. أهلاً.. ماذا تريد..

قال عزمي: أنا الأستاذ عزمي منصور وجئت لزيارتك.

- لزيارتي.. أنت أول أستاذ يدخل هذا البيت ثم تابع قائلاً:

أنت أستاذ.. يعني معلم مدرسة؟

- نعم أنا معلم مدرسة.

- وفي أية قرية؟

- أنا أعمل في المدينة.. في المدارس الثانوية.

ضحك علي أبو خليل قائلاً.. يعني أنت أفندي.

لماذا لا تعلّم في المدارس الأولية؟..

- المدارس الثانوية هي المدارس التي تعلم البكالوريا..

- اعذرني يا أستاذ لا أعرف الشهادات.. أعرف شهادة حسن السلوك وشهادة المختار.. وشهادة الزور عند الأوباش.. لعن الله شاهد الزور..

جلس عزمي منصور في صحن الدار تحت سقيفة خشبية على مقعد خشبي متهالك.. في حين راحت زوجته تعد الشاي.

قال عزمي: يا عمّ علي ما هي قصة حمود السلّوم؟ ولماذا ضرب الدرك؟

- قال أبو خليل.. حمود رجل فقير يتيم عاش عندي سنوات وراح يعمل بدلاً مني في السخرة على الطريق، شتمه الدركي وضربه فلم يتحمل الإهانة فانتقم لكرامته.. والحكومة اعتبرته متمرّداً.. والدرك جاء إلى القرية واستجوب الأهالي.. وسألوني عدة مرات.. وأنا لا أعرف أصله أو فصله جاء إلى المنزل وضع الفأس في المنزل وغادر القرية.. ثم ضحك أبو خليل وسأل الأستاذ عزمي قائلاً:

بربك ما هذه الحكومة التي تحط عقلها بعقل فقير لاجئ في القرية جاء من البادية لا أم ولا أب له.. والمهم السلاح سلمناه كما استلمناه منه..

يا أستاذ نصف أهالي القرية لا يشبعون الخبز.. لا دخل ولا عمل.. وقسم منهم هاجر إلى بلدان أخرى.. نحن نطلب الموت والموت يهرب منا.. ولا من نشتكي له إلا الله.. والأولياء..

قسم كبير في القرية أصيب بالجنون.. اذهب إلى الشيخ محمد النجار وانظر عدد المجانين عنده.. أصبحنا بين مطرقة الجن وسندان الحكومة.

حاول عزمي منصور أن يتحدث مع علي أبو خليل عن المستقبل وطلب منه التفاؤل.. ولكن (أبو خليل) كان يضحك بسخرية وختم بقوله. عزمي أفندي رأيك عندي «ما بيعدّي».. يا أستاذ أنصحك بأن تهتم بنفسك.. لأن كلامك يدل على أن الجن قد بدأ بزيارتك.. ما رأيك تجلس مع الشيخ محمد النجار؟

فهم عزمي ما يقصده علي أبو خليل.. ولكنه شكره على الضيافة والاستقبال ثم تابع مهمته البحثية عن تمرد حمود السلّوم لدى المختار وغيره من أهل القرية، وأثر تمرّد حمود عليهم، أما أبو خليل فقد راح يسامر زوجته منصورة قائلاً:

ما رأيك يا منصورة لو قامت الحكومة بسجنك باعتبارك حرضت حمود السلّوم على ضرب الدرك.

- الله يسامحك يا أبو خليل.. يرضيك أن أدخل السجن؟

- يضحك أبو خليل.. ويقول والله لو سجنوك ستخرج المدينة كلها للتفرج عليك..

- تجيبه منصورة أن زوجي أبو خليل رسم الخطة وأنا بلّغتها إلى حمود.. وحمود نفذها.

- آه والله لست قليلة في السياسة يا منصورة.

ثم يدخلان إلى المنزل بعد أن تجمع منصورة فناجين الشاي التي استضافت فيها عزمي أفندي.

- في الريف تقوم الشمس بإسدال جدائلها الشقراء قبل الشروق، تبدو كوجه رائع الجمال يبرز من وراء الجبال المطلة على اللاذقية من الشرق، تلقي الصباح على الأرض والبشر، تمنحهم ابتسامتها الحانية، مع الهواء تنثر الأرض العطر لاستقبالها، تفترش بالزهور، ترد الأشجار التحية للشمس بأحسن منها، أما الطير فيصدح بالموسيقى والرقص، والبشر أولئك العشاق المولهين بحب الأرض، المفتونين بسحر الشمس يرنون إليها، يحيونها، يستمدون منها القوة والعزيمة وينصرفون إلى أعمالهم، ما أعجب هذه السمفونية العجيبة، ما أجمل هذا التناسق البديع بين الطبيعة والإنسان ما أعظم أن يعلم الله الإنسان ما لم يعلم ويفتح بصيرته على كل شيء..

وفي الجانب الآخر، هناك من يفكر مقارناً بين البصر والبصيرة، بين العقل والخرافة، وكثيراً ما طرح عزمي منصور وزملاؤه في الجمعية العلمية نقاش هذه المواضيع.. وتساءل مع نفسه كيف استطاع مواطن عادي أن يكتشف أن المشعوذ الشيخ الأفيوني الذي استدرج إحدى النساء ليكتب لها سحراً لكي ترزق بصبي، وكتب على جسدها وفي مواقع حساسة هذا السحر، وأن يصفع الأفيوني ويجره إلى الشرطة ويدخله السجن، وكم من النساء اللواتي ضحك عليهن الشيخ الأفيوني ومارس معهن الفاحشة وبقي الأمر سراً.

مسكينة المرأة في مجتمعاتنا، هذا المخلوق الجميل الذي يتعذب لوعة ومرارة وأسى، ومسكين هذا الرجل الشرقي المقموع بالعادات والتقاليد المغلف بقشرة واهية يظن أنها تحميه وهي في الحقيقة تكشف ما في داخله من صراع، من حرمان من كبت جنسي وقمع نفسي وتأرجح بين الحلال والحرام حتى أصبح بسبب الجهل لا يفرق بين الشيء ونقيضه.

عمار محمود هذا الفتى محمول على الدواب، مربوط بالحبال يذهب إلى الشيخ النجار لمعالجته من الجن، لا يتجرأ هذا الإنسان أن يقول أحبّ جارتي الفتاة الجميلة، أرغب في الزواج منها هي تحبني أيضاً، لا يملك أن يقول لوالده ذلك، ولا تملك حبيبته أن تصارحه برغبتها فيه حتى لا يعتقد أنها امرأة رخوة سهلة أمام الرجال وتخفي حبها له عن أهلها وعن المجتمع.

قرر عزمي أن يتحدى الشيخ النجار، وتساءل من يدري قد يكون الشيخ النجار من قرية "أرض الجان" صاحب الهالة المقدسة في القرية والقرى المجاورة قد يكون مارس في السر مع النساء المريضات ما لا يدخل في أخلاقيات الدين، ومن سمح له أن يدعى القداسة والقدرة على شفاء الناس، ومعالجة المجانين..

قرر عزمي أن يتصدى لذلك في الريف والمدينة ويتابع رسالته المقدسة في حرب الجهل والشعوذة والخرافة.. وعندما ذهب إلى النوم كان فكره مثقلاً بالخطط والأفكار.

تناول عزمي قهوته الصباحية كالعادة وكان البحر قبلته الثانية التي يتوجه إليها، كان البحر يشكل له ملاذاً يقوم مقام الأم بعد أن فقدها، ومات والده وراحت تلك الأيام التي كان يعرض أفكاره على والده، فأصبح البحر الأنيس الذي يسمع له بصبر عجيب، والمحدث الصامت البليغ، لقد اكتشف عزمي لغة البحر.. وكثيراً ما كان يقول له أبو اصطيف بلهجة ابن البلد:

مع من تتحدث يا أستاذ كلما توجهت إلى البحر أحسُّ أنك تكلم نفسك "شو عمتحكي مع الجن ونحن لا نعرف؟".

كان عزمي يضحك من كلام أبو اصطيف قائلاً "أنا أعمل من وراء ظهرك يا أبو اصطيف".

في صباح ذلك اليوم وقبل أن يذهب عزمي إلى مكتبه في بناية الصوفي اتجه نحو ساحة الشيخ ضاهر ومنها إلى شارع هنانو، وهناك دخل إحدى المكتبات لشراء بعض الصحف والمجلات ولفتت نظره جريدة الشاطئ المحلية وقد تصدّرها عنوان يقول:

موت فتاة في قرية أرض الجان، بسبب تعذيبها لإخراج الجن منها.

"قاضي التحقيق يأمر بالقبض على الشيخ الذي يدعي إخراج الجن من جسد الإنسان"

اصطحب عزمي الجريدة مع المجلات والصحف التي اشتراها وراح إلى مكتبه يقرأ الأخبار والمقالات والتعليقات التي تحفل بها..

لم يقم أحد من القرية بزيارته في ذلك اليوم ليروي له الخبر الصحيح، وقرر أن يذهب في عطلة نهاية الأسبوع لمعرفة الأمر على الطبيعة، وتساءل هل الفاعل هو الشيخ محمد النجار أم أن شيخاً آخر ينافسه في المهنة، وقرر هذه المرة أن لا يذهب بمفرده وراح يبحث عمّن يرافقه إلى قرية أرض الجن في هذه الرحلة.. وبينما هو غارق في التفكير دخل عليه عضو الجمعية العلمية المحامي الأستاذ وائل الخطيب وقد جاء ليعرض على الأستاذ عزمي أن يتحدث في الجمعية العلمية عن المساءلة القانونية في حالة الضرر الناتج عن الشعوذة أو المعالجة خارج العلم الطبي.

رحب الأستاذ عزمي بالفكرة، وقرأ ما جاء في الجريدة من خبر عن إحالة الشيخ الذي تسبّب في وفاة الفتاة بحجة إخراج الجن منها، وما إن وقعت عين الأستاذ الخطيب على الجريدة حتى اعتبر نفسه فاز بصيد ثمين، فاستأذن

عزمي باصطحاب الجريدة وقرر الذهاب للنيابة العامة للاطلاع على مجريات التحقيق وودع الأستاذ عزمي وانصرف.

رن جرس الهاتف قبل نهاية الدوام بقليل في مكتب الأستاذ عزمي، كان المتحدث الآخر المحامي الخطيب نفسه وبادره قائلاً:

اسمع يا أستاذ خلاصة التحقيق "تسبب الشيخ محمد النجار في موت الفتاة البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً جميلة برهوم من الكدمات وضيق التنفس وهبوط في الدورة الدموية، وأوقف الفاعل وحتى الآن لم يتقدم أحد بالاتهام أو الادعاء على الفاعل وتنظر النيابة في الموضوع.

شكر عزمي الأستاذ الخطيب وأطلق لنفسه عناء التأمل والتفكير.

طرح عزمي عدداً من الاحتمالات ومنها أن أهل الفتاة لن يتقدموا بالدعوى لأنهم سيعتبرون مشاركين مع الشيخ، والاحتمال الثاني أنهم سيعتبرون الموضوع قضاءً وقدراً لأن العمر قد انتهى.

والاحتمال الثالث أن الشيخ يتمتع باحترام الأهالي وسيتعاطفون معه ضدّ من يريد الإساءة إليه وفوق هذا وذاك أن السلطة تقف على الحياد حتى لا تحرض عليها المشاعر الدينية..

وعاد عزمي إلى فكرته الأولى وهي الذهاب إلى القرية..

استقر رأي عزمي على أن يرافقه المحامي الخطيب نفسه باعتباره سيبحث الموضوع في الجمعية بصورة مجردة عن الحدث، ووافق الأستاذ الخطيب على الذهاب معه إلى القرية.

لم يكن في الطريق إلى القرية شيء غير عادي، القرية هادئة، أشجار الصنوبر تتمايل وقد اشتدت أغصانها خضرة، بينما أزهار الربيع البرية تزيّن الأرض في كل مكان، ثمة أشجار قد تحولت إلى اللون الأصفر في حين أن أشجار المشمش واللوز قد ارتدت حلّة بيضاء مشربه ببعض الحمرة كالصبايا اللواتي يذهبن للأفراح، المواطنون في الحقول، والنسيم العليل يملأ الصدور بالانشراح.

في منزل المختار كانت المحطة الأولى، رحب المختار بالضيوف، وبمبادرة من عزمي قام بتعزية المختار بموت فتاة القرية جميلة واستطاع عزمي استدراج المختار للحديث عنها.

كان حديث المختار يختصر واقع المرأة السيئ في المجتمع، أكد أن الفتاة، كانت مريضة، وأهلها كانوا يقسون عليها لأنها عشقت أحد شباب القرية واتهموها بالجنون، وأنها لما جاءت إلى الشيخ النجار كانت قريبة من الموت، وأحد الذين يكرهون الشيخ أخبر الشرطة أن الفتاة ماتت عنده ولم يستطع رئيس المخفر السكوت عن الخبر، فأخبر النيابة العامة والطبيب الشرعي وعاينوا الفتاة، وأوقفوا الشيخ بعض الساعات، وتدخلت القرية للإفراج عنه واعترف الأهل أن ابنتهم كانت تضرب نفسها وترمي نفسها أحياناً من أماكن عالية.. وهكذا حفظ الضبط.. ورفعت المسؤولية عن الشيخ النجار.

(٩)

كان عمار محمود المسكون بالجنيّة غزالة قد بدأ يتماثل للشفاء وشيئاً فشيئاً تباعدت الجلسات عند الشيخ محمد النجار.. وعاد إلى قريته وسط الأفراح التي أقامها الأهل والأقارب له.. ووعده والده بأن يزوجه أجمل فتيات القرية وقد نصحه الشيخ محمد النجار بالزواج من أجل أن ينسى عشقه للجنيّة وكي تيأس الجنيَّة غزالة من العودة إليه..

ونحر والده الذبائح.. وراحت والدته تزور الأولياء الصالحين وبرفقتها ولدها عمار لكي تزيد حصانته في مقاومة الجن وغواياتهم المستمرة..

وما أن علم الأستاذ عزمي منصور بتعافي عمار محمود حتى قصد قريته مهنئاً بالسلامة والعودة إلى المنزل.. واستطاع عزمي من زيارته المتكررة أن يجعل من عمار محمود صديقاً له.. حتى إن عمار إذا تأخر عنه عزمي.. كان يذهب إليه يوم الجمعة في القرية إذا علم بوجوده فيها أو يذهب إليه في المدينة لزيارته. وكان والد عمار قد فهم الهدف الذي يسعى إليه عزمي.

كان الأستاذ عزمي في كل لقاء معه.. يجري معه شبه جلسة للتحليل النفسي وشيئاً فشيئاً استطاع عزمي أن ينفذ إلى أعماق نفسيته والتوغل في أغوارها.. فقد كان عمار صادقاً مع الأستاذ عزمي، وخرج عزمي بنتيجة هامة وهي أن مرض عمار أو العشق مع الجن لم يكن إلا تعبيراً عن حالة كبت جنسي وعشق مكبوت استطاع أن يخلق لديه أوهاماً وخيالات كانت تسيطر على عقله الباطن وتلقنه الأفكار والتخيّلات ــ لقد باح عمار محمود لصديقه الأستاذ عزمي بعشقه لغزالة وسّوف.. وهيامه بها.. وأنه كان يراها على عين القرية ثم أمسك بيدها في دبكة العرس أثناء زواج ابن المختار..

وكان عمار يتعاطى العادة السرية كلما فكر بها.. ولم يتجرأ على مصارحة أهله في حبها.. فسارع أحد شباب القرية للزواج منها وكان أكبر سناً من عمار وظروفه أفضل.. فزاد همه وحزنه على غزالة وزواجها.. وروى للأستاذ عزمي أنه قصد في يوم من الأيام بستان غزالة.. وكانت هناك بئر ماء محاطة بسياج من القصب.. وأثناء دخوله البستان لم يشاهد أحداً.. ولما تقدم نحو البئر يريد الشرب من الدلو المعلق في أعلى البئر.. شاهد غزالة عارية تغتسل في زاوية خلف السياج فانسحب بسرعة كي لا يراه أحد.. وظلت صورة غزالة بجسدها العاري تحتل عقل عمار محمود.. شعرها الأسود الفاحم الطويل.. نهداها المتدليان على صدرها كثمرة السفرجل.. بطنها.. فخذاها.. تفاصيل جسدها..

قال عمار إنه لم ينم تلك الليلة.. مارس العادة السرّية.. راودته نفسه أن ينقض عليها ويفرغ شهوته فيها وليكن ما يكون.. لكنه خاف من وجود أحد من أهلها على مقربة منها قد تصرخ.. وتكون نهايته لأنه في مجتمع لا يسمح بارتكاب الخطيئة..

كان عزمي يسجل ملاحظاته ويسأله وماذا بعد.. فيشرح عمار في نظراته.. ثم ينظر للأستاذ عزمي قائلاً:

كانت غزالة تلح عليّ في الليل والنهار وكثيراً ما كنت أراها في أحلامي وأحياناً أردد اسم غزالة.. فيسمعني إخوتي.. وأحياناً والدتي..

كانت غزالة قد تزوجت ولم يكن أحد من أهلي أو أهلها يعرف بأنني قد عشقتها.. ولم يخطر ببال أحد أن غزالة التي أذكرها هي غزالة وسوف التي أحبها.. قال أهلي إن جنيّة قد عشقتني وعشقتها وأنه لا سبيل إلى الشفاء إلا بالذهاب إلى الشيخ محمد النجار والتردد على أولياء الله الصالحين.

ثم تابع عمار قائلاً.. كنت أسمع ما يقوله الشيخ محمد النجار من آيات وأدعية وكلمات لا أعرف معناها.. وهكذا كنت أغيب عن الوعي وأغطّ في

نوم عميق. لا أعرف ما يجري حولي.. وكان أهلي يسمعون الحديث بين الجنية غزالة وبين الشيخ محمد النجار...

قال الأستاذ عزمي.. يا عمار.. ما كان يقوم به الشيخ النجار كان تنويماً مغناطيسياً لك.. وأنك كنت تقول ما في عقلك الباطن عن غزالة وسّوف.. واستطاع الشيخ عن طريق التنويم المغناطيسي أن يحرر عقلك الباطن من غزالة وسوف.. والموضوع معقد جداً يا عمار.. ولكن علم النفس والطب النفسي استطاع عن طريق دراسة منطقه اللاوعي في الدماغ، وتحليل الغرائز والدوافع والميول والسلوك الجنسي أن يقدم خدمات كبرى للإنسانية.

قال عمار.. لم أفهم شيئاً مما تقوله يا أستاذ.. وأنا تعلمت حتى الصف الخامس ابتدائي.

ــ أنا سأضع لك برنامجاً للتعليم.. وسأزودك بالكتب.. وسأتحدث مع معلم المدرسة لإعطائك بعض الدروس الخصوصية..

شكر عمار الأستاذ عزمي ورجاه أن لا يتكلم عن أسراره لأي إنسان لأن غزالة وسّوف تزوجت وأصبح لها أولاد في القرية وقد نسيها تماماً.

وعده عزمي بالحفاظ على أسراره ثم ودعه.. وانصرف.

لم ينسَ عزمي منصور أن يزور مختار القرية والشيخ النجار.. وقد استقبله المختار بحفاوة.. بينما الشيخ النجار لم يعطه إلا دقائق قليلة ثم اعتذر له لانشغاله في عيادته المملوءة بالمرضى المصابين من الجن.. كان الشيخ النجار لا يرتاح إلى عزمي.. وكان عزمي يشعر بذلك.. ولكنه كان لا يريد فتح معركة مع رجال الدين وخاصة ممن لهم شعبية كبيرة بين المواطنين كالشيخ النجار.

بقي الشيخ محمد النجار مستغرقاً في التفكير بعد مغادرة الأستاذ عزمي له متسائلاً: لماذا جاء إليَّ زائراً في هذا الوقت؟ ولماذا لم أفهم منه سر زيارته للمختار ولنا.. هل يخفي وراء الزيارة شيئاً؟ وانصرف ذهن الشيخ إلى الحادثة التي مرت عليه من أسبوع واستحوذت على حديث الناس في القرى

المجاورة.. فلقد كان الشيخ النجار يعالج فتاة رائعة الجمال لم تتجاوز العشرين ربيعاً من عمرها اسمها جميلة برهوم.. وقد بقيت أكثر من شهر في عيادة المجانين عند الشيخ النجار.. ولكنها توفيت عنده وتوقف قلبها.. وحزن عليها الأهالي وسط تساؤلات القرويين عن أسباب موتها ــ البعض قالوا إن الجنيّ الذي عشقها وهام بحبها قد خنقها عندما أجبره الشيخ على الخروج منها.. والبعض قالوا إن الشيخ زاد عليها الجلسات حيث أصبحت كالعود لا تأكل ولا تشرب حتى ماتت.. والبعض الآخر كان يلقي باللوم على أهلها الذين كانوا سبباً في عذاب هذه الفتاة الجميلة من قسوتهم عليها وما لاقته من عذاب في حياتها..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١٠)

كانت وسيلة وسّوف في الثانية عشرة من عمرها عندما اضطر أهلها بسبب فقرهم الشديد أن يضعوها خادمة لأربعة سنوات عند إحدى العائلات في المدينة.. وكان حظها العاثر أن كانت هذه العائلة لا تعرف الرحمة، الرجل مدير عام في إحدى الشركات الحكومية الكبرى وسيدة المنزل ابنة أحد أثرياء المدينة التي تقضي وقتها في الزيارات والسهرات، أما الأولاد فكانوا ثلاثة - ابنتان وولد.. كان الولد بعمر وسيلة.. وكان والداه يدللانه باعتباره الابن الوحيد لهما.. أما الأختان فكانتا الأكبر ويدرسان في الجامعة.. وكالوالدة يقضيان الوقت أحياناً في السهر وصالات الديسكو.. ثم تزوجا وبقي الولد الوحيد المراهق في المنزل..

كاد جمال وسيلة أن يشغل له عقله، يجلس معها في المطبخ ويتبعها للحمام يتلصص عليها من خلال الشقوق.. وفي غياب الوالد والوالدة.. كان يمسكها بنهديها فتنفر منه.. ويحاول تقبيلها.. وأحياناً يرفع فستانها ليتأمل جسدها أو ملابسها الداخلية فتضطر إلى ضربه..

لم تستطع هذه الفتاة تحمل هذا المراهق الشرس فشكته إلى أمه مراراً.. ولكن الوالدة كانت تقول لها إياك أن تضربيه.. اتركيه يتدرب عليك.. ليتعلم على الأنثى.. ألا تشعرين بأن لديك رغبة لعناقه وضمه.. إذا رغب في النظر إلى جسدك.. قولي له إنك تريدين النظر إلى جسده.. تبادلا السرور معاً.. وكانت وسيلة تعود إلى غرفتها وهي تبكي.. فقد كانت أمها منذ الطفولة.. تقول لها لا تلعبي مع الصبيان إياك أن يراك أحد عارية.. إياك أن تتركي أي صبي مهما كان عمره يرى عورتك أو يلعب معك في الأماكن المستورة.. هذا حرام.. البنت يجب أن تكون شريفة لا يرى جسدها إلا أمها وزوجها

عندما تتزوج على سنة الله ورسوله - تتذكر أمها ثم تبكي وتقول ماذا سأفعل بهذا الشرير الذي يحاول الاقتراب مني كل يوم.. ماذا لو تمكّن مني في يوم من الأيام وانتهك عرضي ماذا سأقول لأهلي.. وماذا لو راحت عذريتي.. من يتزوجني.. من يقبلني..؟ أين شرف عائلتي إنهم سيذبحوني ويتخلصون من عاري..

وضعت وسيلة خطة للهرب.. ورسمت كيف ستخرج مسرعة إلى كراج السيارات التي تذهب إلى قريتها كيف ستقطع الشارع مشياً إلى هناك؟ كيف ستركب السيارة من أين ستدفع الأجرة.. ماذا سيقول الأهل لها عند وصولها؟ وماذا ستقول لهم.. أسئلة كثيرة كانت تطرحها على نفسها وأخيراً استقر رأيها على أن تتحدث مع سيدتها بصراحة عن شراسة ابنها زياد.. ثم تتحدث لوالدها عندما يأتي لزيارتها في آخر الشهر لقبض الأجرة..

كانت السيدة تستعد للذهاب إلى السهرة برفقة زوجها المدير العام فاستدعت وسيلة وألقت عليها عدداً من النصائح والتعليمات وأوصتها بزياد.. والقيام على تقديم الخدمات التي يطلبها حتى ساعة نومه ثم أغلقت الباب وأسرعت إلى سيارتها..

تسلل زياد إلى غرفة وسيلة وكانت تستلقي متعبة على سريرها فانقض عليها كالنسر على الطريدة ونام فوقها وأطبق فمه على شفتيها في حين راح يرفع فستانها بيديه عن جسدها ويسرّبها إلى ما بين فخذيها يريد نزع سروالها عنها.. ولكنها انتفضت كنمرة شرسة وأزاحته عنها ناشبة أظفارها في وجهه وممسكة بيديها برقبته ودفعته إلى بلاط الغرفة، ونهض كالذئب مرة أخرى مهاجماً ولكنها استطاعت أن تخرجه خارج الغرفة وأقفلت الباب عليها.. وذهب يتجرع الخيبة فيما راحت تبكي وتتأمل فستانها الممزق وأثار عضّ أسنانه في وجهها وشفتيها الجروح والكدمات التي أحدثتها يداه وأظافره في ظهرها وأعلى فخذها.. ثم تساءلت ماذا ستقول سيدتها لها وما هي الليلة التي تنتظرها.. فكرت بأهلها وإخوتها وتمنت لو تخرج في هذه الليلة هائمة على

وجهها تهرب من مصير أسود ينتظرها.. لكنها استسلمت إلى نوم عميق حتى الصباح - حيث تأخرت سيدتها إلى ساعة متأخرة من الليل..

استيقظت وسيلة في ساعة مبكرة.. بقيت في غرفتها منتظرة.. لم تتجرأ على الخروج من غرفتها حتى جاءت سيدتها تصرخ بها.. أين أنت أيتها الكلبة السافلة يا ابنة الأوغاد اخرجي.. سألعن أباك وأب من دلنا عليك ماذا فعلت بزياد يا ابنة الكلب..؟!

فتحت وسيلة باب الغرفة كانت الكدمات والجروح ظاهرة في وجهها وعند عينيها.. لم تترك لها السيدة فرصة لتقول ما جرى لها انهالت عليها ضرباً ورفساً.. قائلة تعملين نفسك شريفة يا عاهرة وتضربين ابني.. تخافين على نفسك منه.. سأتركك عارية ثم قامت بنزع ثيابها حتى بدت عارية تماماً إلا من غلالة تستر ما بين فخذيها ثم نادت زياد قائلة له.. تفرج يا زياد.. قم بالركوب عليها ثم أنزلت سروالها قائلة هذا الذي تخافين عليه يا ابنة الكلب.. أنا اشتريتك بمالي وسأجعل ابني يتمتع بهذا المال..

أسرع الزوج مهرولاً على صراخها.. قائلاً ماذا حصل يا فاتن.. وفوجئ بما رآه، الخادمة وسيلة الصبية الجميلة عارية تماماً أمام زوجته وابنه، تظاهر بالحياء.. ولكنه عاد إلى زوجته ولكن فاتن جذبته قائلة:

انظر وجه زياد كيف فعلت به هذه العاهرة.. انظر هذه الجروح من أظافرها وضرباتها سأجعلها عبرة لمن يعتبر وسأترك زياد يفعل بها ما يشاء.. الآن سيركبها غصباً عنها..

دفعها زوجها قائلاً: اهدئي يا فاتن.. زياد مازال صغيراً على ذلك؟

- لا ليس صغيراً.. سأجعله يعرف كل شيء كما يتعلم دروسه في المدرسة.

- اهدئي يا فاتن.. الجيران يسمعون صراخك.. غداً يصل الأمر للصحافة..

- أية صحافة أو جيران..؟ ..هذا ابني وحيدي تضربه هذه العاهرة..

دخلت وسيلة ترتدي ثيابها.. وأغلقت الباب عليها.. وراحت تنتحب بشدة.. وهي تتمنى أن تموت في ساعتها..

في اليوم التالي.. صممت وسيلة على الهروب.. وضعت ثيابها في كيس صغير.. ثم انتظرت خروج السيدة إلى خارج المنزل للتسوق وزيارة صديقتها وتناول الغداء معها.. في حين سمعت أن زياد سيذهب مع والده للسباحة والغداء في نادي الشركة..

في الوقت المناسب.. خرجت من المنزل.. أغلقت الباب متسللة على الدرج.. ثم انطلقت مسرعة في الشارع واتجهت إلى محطة الباصات.. كانت تحمل في محفظتها عشر ليرات ورقية تمكنت من دفع أجرة الباص.. ثم وجدت نفسها في سيارة أخرى متجهة إلى قريتها..

عندما وصلت إلى مشارف القرية شعرت بالارتياح بأنه لا أحد يطاردها ويستردها إلى منزل مخدومها إلى سيدتها الشرسة فاتن وأصبحت الخادمة ترى ما فعلته بها فاتن من تعريتها تماماً أمام ابنها وزوجها في أحلامها وتصحو مذعورة وهي تتلمس جسدها تخشى على نفسها من الاغتصاب..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١١)

كان المساء يلف القرية - الفلاحون المتعبون عادوا من العمل في الحقول والرعاة وقطعانهم اطمأنوا على أن لا شيء يعكر صفو يومهم.. لاذ كل إنسان في منزله يتناول عشاءه، أو يسامر عائلته استعداداً لموعد مع النوم العميق لا شيء أحلى من الليل لراحة الأجساد المتعبة.. ولا شيء أصدق من الليل ليبثه المعذبون لواعج شوقهم يبوحون له بأسرارهم وعذاباتهم.. إنه الخل الوفي الذي يسامرهم ولا يمل من سماعهم.. وهو في آخر المطاف الحضن الدافئ الذين ينامون عليه ويغمضون أجفانهم على حلم قد يأتي بالحل لمشاكلهم ويعجل بانفراج الأزمات.. وكثيراً ما غنى المعذبون والعشاق والمظلومون يا ليل.. يا ليل ونظموا فيه الأشعار والأغاني.. ورافقوه إلى صباح جديد.

دقّ باب خضر وسّوف.. استغربت العائلة هذه الضربات الخائفة.. فتح الأب الباب.. فرأى ابنته وسيلة أمامه تحمل كيس ملابسها.. انحنت تقبل يد والدها وسط دهشته واستغرابه الذي انعقد لسانه من المفاجئة ــ تقدمت وسيلة نحو أمها وأخوتها.. وقف الجميع مذهولين..

نظرت الأم في وجه ابنتها عندما اقتربت من مصباح الكاز.. وصرخت.. ما هذا الذي في وجهك.. وحول عينيك؟! من الذي ضربك واعتدى عليك، اقترب والدها منها.. تجمعت العائلة حولها أما وسيلة فقد انفجرت في بكاء متواصل لم يسمح لها بالكلام.

اضطرب خضر وسوف وكذلك زوجته.. انصرف الذهن إلى اغتصاب العرض.. هذا الشيء المخيف المرعب للأسرة.. صرخ خضر بها وقد أمسك بها.. انطقي هل اعتدى عليك أحد.. وأكملت أمها قولي هل مازلت عذراء؟!

صرخت وسيلة.. اطمأني يا أمي.. أنا مازلت عذراء.. الموت ولا العار اسمعوني لأروي لكم قصتي.. لا تظلموني.. كونوا معي على الحق..

هه.. قولي أسرعي.. الحمد لله أنك حافظت على شرفك..

بدأت وسيلة برواية ما حصل لها في بيت المدير العام سعيد الفقش وزوجته فاتن الجلفي وابنها زياد.. وما تحملته من عذاب وصبر ومقاومة على مدى العامين الماضيين.. وكيف تصرف زياد يريد اغتصابها وهو في الرابعة عشرة من عمره.. وما ألحقه بها من كدمات وجروح خفيفة.. وكيف تصرفت أمه.. وعندما وصلت وسيلة إلى رواية كيف أجبرتها على خلع ثيابها بالقوة أمام زوجها وولدها.. ونادت ابنها ليقوم باغتصابها..

صرخت الوالدة.. الله يفجعها بالعزيز عليها.. لا تكملي يا وسيلة قلبي يكاد يتوقف.. لا أريد أخوتك أن يسمعوا بقية الحكاية..

أما الوالد فقد قال لها.. والله العظيم سأنتقم لك من هؤلاء الكلاب.. سأذهب غداً إلى رفع دعوى عليهم.. وإذا القضاء لم يأخذ لي حقي.. وإذا لم يفعل سأفكر بالانتقام.. ثم توجه رافعاً يديه إلى السماء قائلاً: يا رب أنت أقوى من كل ظالم.. يا رب خذ الحق للمظلوم ونجنا من القوم الظالمين...

كان الليل مؤرقاً.. كثيراً ما انتفض الأب من نومه قلقاً يفكر فيما يعمله في صباحه.. وكثيراً ما انتابته هواجس الخوف من المكائد التي يدبرها من كانت ابنته في خدمتهم.. لقد سمع كلام ابنته وهو يصدق كلامها.. لكنه تساءل عما سيقوله الآخرون.. وفكر مخاطباً نفسه.. هل يؤجل الشكوى ويذهب إليهم ليرى حقيقة الأمر.. أسئلة عديدة كان يطرحها على نفسه ويجيب عليها ولا يستقر على رأي حاسم فيعود للنوم مغمضاً عينيه.. ولكن عقله لا ينام..

في الوقت نفسه لم تستطع زوجته النوم.. ولكنها كانت تلوذ بفراشها قلقة حائرة تلقي بين الحين والآخر نظرة على ابنتها المتعبة من شقاء الأيام والتي غطت في نوم عميق..

بدأ الفجر يرسل خيوطه الأولى وابتدأت الحركة في القرية.. بدأها الديكة في الصباح ثم أخذت الكلاب بالنباح من داخل الحظائر.. القرويون يستعدون للخروج إلى أعمالهم استيقظت الأسرة في منزل خضر وسوف.. خرج الزوج والزوجة يتشاوران.. بادرها قائلاً:

ما رأيك؟ أنذهب للشكوى في المخفر.. أم أذهب لزيارة سعيد أفندي وأفهم منه ومن زوجته الموضوع؟..

والأمر الثاني ما سنفعل إذا اشتكوا علينا وإن ابنتنا هربت من عندهم دون تنفيذ عقد الخدمة وطالبوا بالتعويض ودفع الغرامة.. ونحن لا نملك المال ولا نستطيع أن ندفع مصاريف المحكمة..

ثم تابع قائلاً: وماذا لو ادّعوا عليها أنها سرقت شيئاً ورتبوا لها تهمة وزوّروا الوقائع والأدلة..؟! ..والله أنا في حيرة من أمري.. ولا أدري ماذا سأفعل. ثم وضع رأسه بين كفيه وراح يتأمل في الأفق.

قالت زوجته: يشتكون علينا بعد كل الذي عملوه في البنت؟. كيف يتجرؤون أن يرفعوا رأسهم من العار؟ اذهب واشتكِ عليهم.. وابصق في وجه تلك المرأة اللعينة..

استيقظت وسيلة من نومها على صوت محادثة والديها وارتفاع صوتيهما.. ثم ذهبت تغسل وجهها وتتدبر أمرها..

(١٢)

كان الرأي قد استقر على الذهاب إلى المخفر والتقدم بالشكوى والإعلام بما حصل طلباً للحق ودفعاً للخطر.. وهكذا توجه الأب وابنته وسيلة إلى المخفر..

عاد الدكتور محسن درويش من دراسته التخصصية في الطب النفسي من فرنسا، وافتتح عيادته في اللاذقية، كانت الجمعية التي أسسها عزمي منصور قد حققت سمعة حسنة وواسعة في المدينة، وفي مناسبة اجتماعية تعرّف الدكتور محسن على عزمي وانضم إلى الجمعية وأصبح من الأعمدة الرئيسة لها.

كان الدكتور محسن يعرف حاجة المدينة لاختصاصه في الطب النفسي بعد أن سمع الكثير عن الأمراض النفسية قبل سفره ولجوء الناس إلى المشايخ والأولياء ووقوعهم في أحيان كثيرة ضحايا للمشعوذين، وكان هدفه الأساسي إنقاذ هؤلاء الأبرياء الذين فتك بهم الجهل والمرض والكبت والحرمان وجعلهم ضحايا لأمراض جسدية ونفسية عديدة، ولقد أعطاه الأستاذ عزمي إحصائية اجتماعية عن هذه الأمراض.. وألقى الدكتور محسن في المركز الثقافي عدداً من المحاضرات عن الصحة النفسية، كما شجع الأستاذ عزمي الطلاب والشباب على حضور هذه المحاضرات.

كانت عيادة الدكتور محسن في عامها الأول تكاد تكون خالية من الزبائن، كان البعض يخجل من التردد على العيادة النفسية حتى لا يقال عنه إنه من المجانين وتسوء سمعته بين الناس وكان المتضررون من الأطباء يبثون الأقاويل والأباطيل ضدهم.. ولكن ازدياد الوعي جعل العيادة مقصداً للمرضى الذين شعروا بالفائدة السريعة والتحسن بالعلاج الطبي والأدوية المناسبة، بدلاً من الانتظار لمعالجة الشيخ بطرد الجن من أجسادهم.

وكان عزمي قد أخبر الدكتور محسن عن الفتاة التي ماتت في قرية "أرض الجان" من الضرب والتعذيب لطرد الجن منها، وكيف أحيل أهلها والشيخ الذي توفيت لديه إلى القضاء.. وروى له كيف أن بعض المحامين كانوا بصدد تقديم دعوى الحق العام ضدّ المسببين.

كان الأستاذ عزمي يستعد للذهاب إلى المدرسة الثانوية التي يقوم بالتدريس فيها عندما فاجأه أبو اصطيف في زيارة مفاجئة، كان أبو اصطيف متعباً يبدوعليه الإعياء وحتى لا يضيع وقت الأستاذ عزمي اعتذر له عن مجيئه في الصباح الباكر وبادر قائلاً:

جئت إليك يا أستاذ لأنني ومنذ أشهر وأنا أعاني من الكوابيس في الليل، وأحياناً أسهر الليل خوفاً من النوم حتى لا تداهمني هذه الكوابيس، أحس بأن رجالاً يجلسون على صدري ويحاولون خنقي وأحياناً يقيدون يدي وقدميّ.. وذهبت إلى الشيخ وقال لي هؤلاء من الجن وكتب لي أنواعاً من الكتابة وضعتها في يدي ورقبتي دون جدوى، ووصف لي شراباً من النباتات ولكن لم أشعر بفائدة، أرجوك أن تحدث الدكتور محسن درويش لأذهب إليه في العيادة لأن صديقاً لي يجلس معي في المقهى قال عنه إنه طبيب ماهر وفهيم، وإن الناس قد استفادت بعد التردد عليه.

شعر الأستاذ عزمي بقناعة أبو اصطيف للذهاب إلى طبيب اختصاصي ووعده أن يصطحبه في المساء إلى عيادة الطبيب محسن..

لم يسكت أبو اصطيف طيلة سيرهما في الطريق إلى العيادة وهو يتحدث للأستاذ عزمي عن أحلامه المخيفة ومازحه عزمي قائلاً:

أبو اصطيف، ألا تهاجمك النساء وتنام على صدرك وتحاول خنقك؟

ضحك أبو اصطيف قائلاً:

نساء؟ أين النساء.. لو جئن إليّ وجلسنَ على صدري كان شبابي يعود إليَّ.

وصل العيادة وبعد أن دخل إلى الدكتور محسن.. سأله هل يبقى الأستاذ عزمي معك، أم أن الموضوع يبقى سراً بيننا؟

قال أبو اصطيف.. الأستاذ عزمي يعرف عني كل شيء.

لكن عزمي ترك الغرفة وخرج إلى الصالون يقرأ بعض الجرائد الموضوعة على الطاولة ليترك الحرية لأبو صطيف.

وبعد إجراء الكشف الطبي الروتيني بدأ الدكتور محسن الأسئلة..

الحالة الاجتماعية.. الحالة المادية، الحالة العائلية.. إلخ.

وانطلق أبو اصطيف يحكي سيرة حياته وأسراره قبل الزواج وبعده، ومعاملة الزوجة والأولاد له ومعاملة الوسط الاجتماعي والأقارب..

واستنتج الدكتور محسن أن المريض يعاني من الكآبة بسبب التقدم بالسن والعجز الجنسي وعدم ممارسة أي عمل والفراغ الذي يعاني منه، وبعد أولاده عنه وخوفه من الموت بسبب التقدم في السن وأمراض الشيخوخة.. ووضع له وصفة طبية ونصحه بالسير كل يوم على شاطئ البحر لمدة ساعة، كما وضع له برنامجاً غذائياً..

ولما دخل الأستاذ عزمي طمأنه الدكتور محسن على صديقه ووعده أن يعود إليه بعد أسبوعين.

ودع الأستاذ عزمي أبو اصطيف وعاد إلى الدكتور محسن الذي أخبره بأن أبو اصطيف هو نموذج لأعداد كبيرة من المتقدمين بالسن وخصوصاً المتقاعدين وممن فقدوا زوجاتهم حيث يصابون بالاكتئاب وقد تزداد حالتهم سوءاً حتى يلجأ البعض منهم للانتحار، وذكر له في الغرب تشكل جمعيات ودور رعاية للمسنين وتقام لهم حدائق وأنشطة خاصة لممارسة هواياتهم من زراعة وتربية طيور وغير ذلك، كما ذكر الأستاذ عزمي أن الرعاية الصحية والتأمينات الاجتماعية تقوم بتمويل ذلك في الدول المتقدمة، ثم اقترح الدكتور محسن على صديقه تناول العشاء في مطعم على الكورنيش.

كان المساء موحشاً، مطر خفيف يتساقط يشاهد من خلال أعمدة الكهرباء المتناثرة، كان صوت البحر يوحي بالرهبة لم تكن حركة المرور كبيرة، فالمدينة تذهب إلى النوم في ساعة مبكرة ومطاعم قليلة تبقى مفتوحة

في الليل يقصدها البحارة والمسافرون القادمون إلى المدينة، كان الهواء رطباً لا يشجع على السير مشياً على الأقدام ووصلا بالسيارة إلى المطعم..

تحدث عزمي عن همومه التي يحملها تجاه قريته "أرض الجان" والتخلف الذي تعيش تحت وطأته، والخرافات التي تسيطر على عقول أهلها، وممارسة الشعوذة والدجل على البسطاء من الناس واستغلالهم في أعمال السخرة، وختم كلامه قائلاً:

لا أعرف من أين أبدأ، هل أبدأ من محاربة خرافة الجن، أم أبدأ من محاربة الجهل ونشر المعرفة أم من مقاومة الظلم والاستغلال الذي يمارسه المتنفذون تحت حماية السلطة؟!

وأجاب الدكتور محسن مشجعاً، واضعاً نفسه في خدمة المشروع النهضوي الذي يتبنّاه في الريف والمدينة واستعداده لمعالجة المرضى الفقراء مجاناً في عيادته.

وهكذا انصرف الصديقان يفكران بيوم جديد وبالمفاجآت التي يحملها هذا اليوم بعد أن اتفقا على القيام بزيارة قرية "أرض الجان" في القريب.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١٣)

الطريق بين القرية والمدينة يمر بأكثر من محطة بعضها سيراً على الأقدام والبعض الآخر بالسيارة.. عذاب الفكر أقوى من عذاب الجسد.. لم يشعر خضر وسوف وابنته بالمسافة فقد كان فكره مشغولاً بما سيلاقيه في المدينة، وما إن وصل إلى المدينة حتى توجه إلى مخفر الشرطة القريب من منزل سعيد الفقش الذي تعمل لديه وسيلة.

دخل المخفر متوجساً خائفاً فلم يعتد على الشكوى على أحد أو يشتكى منه أحد، استقبله ضابط الخدمة المناوب.. سمع منه شكواه فطلب منه أن يذهب لكتابة شكوى حتى يتمكن رجال الشرطة من اتخاذ اللازم، وفي اللحظة التي كان خضر وسوف يعرض شكواه على الضابط وبرفقته ابنته وسيلة كان يجلس في مكتبه المحامي أحمد المحمود في زيارة تتعلق بالعمل.. والمحامي المحمود كان نقيباً للمحامين وهو رجل متوسط العمر كثير الوقار والاحترام واشتهر عنه الدفاع عن قضايا المظلومين والفقراء في المجتمع فما أن سمع الشكوى حتى تطوع أن يكتب له الدعوى ويقدمها للضابط المناوب كما أعطاه بطاقة فيها عنوان مكتبه ورقم هاتفه.. وعرض عليه أن يكون وكيلاً عنه يرافع في القضية أمام المحكمة إذا لزم الأمر..

كانت الساعة قد اقتربت من الواحدة ظهراً.. وخضر وسوف لم يزل في المخفر يهم بالمغادرة حتى وردت إشارة برقية للضابط المناوب، مفادها أن خضر وسوف قد غادر القرية إلى اللاذقية ومعه ابنته وسيلة وتطلب البرقية من ضباط الشرطة القبض عليه وعلى ابنته والتحقيق معهما في الشكوى التي تقدمت فيها فاتن الجلفي وزوجها المدير العام سعيد الفقش يدّعون فيها أن

الخادمة وسيلة وسوف قد غادرت المنزل وقد سرقت مبلغاً من النقود وبعض المجوهرات وادعوا على الخادمة ووالدها بالتضامن والتكافل..

طلب الضابط من خضر وابنته البقاء في مكتبه ثم توجه خارج المكتب إلى غرفة أخرى حيث اطلع على تفاصيل البرقية والشكوى المقدمة من مخدومتها فاتن.. وكانت فاتن قد سارعت مع زوجها بتقديم شكوى تدعي فيها أن خادمتها وسيلة قد سرقت بعض الحلي والنقود وخرجت من المنزل إلى جهة مجهولة. وفي الوقت الذي كان التحقيق يجري مع الخادمة ووالدها في المخفر حول ادعاء مخدومتها واتهامها بالسرقة، كانت دورية أخرى من الشرطة في القرية تسأل المختار عن خضر وسوف وابنته وسيلة وقد تمّ استدعاء زوجته التي أفادت بأن زوجها خضر قد ذهب برفقة ابنته وسيلة لتقديم شكوى على مخدومتها، ونفت أن يكون لابنتها علاقة بما نسب إليها وإنما هي دعوى كيدية ليستروا على جريمتهم النكراء بابنتها.. كان حديث الزوجة مفاجئاً للمختار وللقرية.. وقد دبّ الخبر في القرية وتحمس الناس لموضوع وسيلة وتطوع بعض الشباب للذهاب إلى المدينة لمعرفة ماذا جرى لابن قريتهم خضر وسّوف وابنته، كما أن المختار أكد أمام الشرطة بأن خضر وسوف رجل عاقل وشريف وأنه بريء وكذلك ابنته، وهو يكفل ذلك الآن ومستقبلاً.. فترك رجال الشرطة القرية وعادوا إلى المدينة بعد أداء مهمتهم.. وبلغوا المركز بما قاموا به..

احتجز المخفر في المدينة خضر وسّوف وابنته بعد سماع أقوالهما لتقديمها للنيابة العامة موجودين وتقرر دمج الموضوعين، حيث قرر الضابط استدعاء سعيد الفقش وزوجته للتحقيق فيما نسب إليهما في شكوى خضر وسوف وابنته ومحاولة اغتصابها بالإكراه والتحرش بها جنسياً وهتك عرضها.. إلا أن المدير العام وزوجته أرسلا محاميهما إلى المخفر ونفى نفياً قاطعاً باسمهما كل التهم الموجهة إليهما متذرعاً بمكانتهما الاجتماعية والوظيفية وسمعتهما وطلب باسمهما الادعاء الشخصي بالتشهير بهما والإساءة إلى سمعتهما.. ثم انصرف المحامي تاركاً الملف لدى المخفر بعد أن طلب صورة عن أقوال أطراف الشكوى..

وصل شباب القرية إلى المخفر.. طلبوا من الضابط أن يسمح لأحدهم بمقابلته ليسأله عن حاجة خضر من طعام أو نقود.. وكان خضر وسوف لم يذق طعاماً مع ابنته منذ أكثر من عشر ساعات وقد استبدّ بهما الجوع.. وأحضر لهم الطعام وطلب خضر وسّوف من الأستاذ فارس الشريف الاتصال بالأستاذ أحمد المحمود.. وأن يشرح ما جرى لهما والتهمة الموجهة ضدهما. وفارس هذا أحد شباب القرية الجامعيين.. قضى خضر وسوف ليلته في المخفر مع ابنته.. أما زوجته فانتابها القلق والخوف وقد عاد شباب القرية بعد أن وضعوها في صورة الموقف.. ووعدوها بالوقوف إلى جانبها ومعهم القرية كلها وفي الساعات الأولى من الصباح كان الأستاذ أحمد المحمود قد اصطحب معه مسؤول الوكالات في نقابة المحامين حيث أصبح وكيلاً لخضر وسوف وابنته واصطحبهم مع الشرطة إلى قاضي التحقيق.. بعد أن سمع من وسيلة الحكاية مرة أخرى بتفاصيل أكثر مما سمعه منها عند ضابط المخفر بالأمس..

قاضي التحقيق كان رجلاً يشهد له بالنزاهة والكفاءة تتمتع بشخصية قوية، فرض احترامه على المدينة كلها واستطاع بمقدرته الفائقة أن يكشف عدداً كبيراً من أسرار الجرائم المعقدة مما جعله من بين القضاة النادرين في التحقيق.. وكان لا يتعجل الأشياء بل يدرسها بصبرٍ وأناة.. وما أن مثل خضر وسوف وابنته وسيلة حتى طلب قاضي التحقيق الانفراد بوسيلة وسؤالها عن الحكاية كما حصلت لها..

بقيت وسيلة أمام قاضي التحقيق وهي خائفة ولكنها واثقة من صدقها.. فطمأنها بأسلوبه، وبدأ بأسئلته التي كانت أشبه بالتحليل النفسي واستطاع أن يتعرف على مواطن الضعف والقوة في شخصيتها.. واكتشف أنها قوية وخجولة صادقة وعفيفة رغم الفقر.. واستطاع أن يرسم صورة للأسرة التي تخدم عندها وللمراهق الوحش الذي يريد افتراس الطرائد.. ثم استدعى الأب وأخذ إفادته واستدعى المحامي المحمود.. وتداولا بالحديث.. وطلب المحامي

المحمود من قاضي التحقيق إطلاق سراحهما بكفالة.. وقرر القاضي الاحتفاظ بهما ريثما تتم إجراءات الكفالة بالطرق القانونية.

وفي مقابل ذلك، أصرّ قاضي التحقيق على استدعاء فاتن وولدها وزوجها للتحقيق..

لم تكن فاتن الجلفي مهيأة للدخول إلى المحاكم، كانت متسلطة في تصرفاتها وسلوكها.. حتى زوجها المدير العام كان يبدو ضعيفاً أمامها.. كانت تعتقد أن الموضوع ينتهي كما انتهى أمام الشرطة دون أن تحضر لأخذ إفادتها بل ذهبت الشرطة إلى منزلها.. وذهب محاميها إلى المخفر لإحالة الضبط إلى النيابة.. أما عند قاضي التحقيق فالأمر مختلف.. وبالرغم من تطوع زوجها للذهاب معها إلى المحكمة لم يهدأ بالها وكذلك تبسيط المحامي للموضوع وخاصة أن ابنها المراهق مطلوب معها.. وهي تخشى زلة لسان من هنا أو هناك.. ولم تكن واثقة من مواجهة ابنها مع وسيلة إذا أقدم القاضي على ذلك.. حاولت إعفاء نفسها من هذه المهمة ولكن المحامي قال لها: إن الدعوى باسمك وعدم حضورك أمام التحقيق وخاصة عند الاستجواب يضعف الدعوى وقد تخسرين القضية فوافقت على الذهاب.

في اليوم التالي كان الجميع لدى قاضي التحقيق للاستجواب.. وقبل الشروع في استجواب فاتن الجلفي وابنها بحضور محاميها.. كان القاضي قد طلب خضر وسوف وابنته وسيلة ووضعهما في غرفة مجاورة.. طلب قاضي التحقيق المعلومات المطلوبة ثم طلب الاجتماع مع فاتن على انفراد.

فاجأها القاضي بذكائه المعهود أنه عثر على بعض المشغولات الذهبية في بيت خضر وسوف وسألها عما إذا كانت تعرف الأشياء العائدة لها.. وراقب القاضي حركاتها فوجدها مضطربة ولم يلحظ عليها أية علامة ارتياح..

ولما قدّم لها بعض المشغولات التي كان يحتفظ بها من قضية أخرى زاد اضطرابها ولم تستطع اتخاذ قرار بشأن بعضها.. ولكنها أخطأت بادعائها أن إحدى المشغولات تعود لها..

قال القاضي بهدوء.. سيدة فاتن.. هل لديك ورقة بشراء هذه القطعة التي تعرفت عليها.

أجابت: نعم ولدي الإيصال بذلك.

- حسناً.. أحضري الإيصال وسنقوم بتسليمك القطعة..

وكان القاضي يعرف صاحب هذه القطعة الذهبية والمكان الذي اشتريت منه.. ولكنه لم يقف عند هذا الموضوع.. ثم تابع الأسئلة والأجوبة..

ولما وصل إلى موضوع وسيلة ومحاولة اغتصابها من قبل ولدها ووقوفها إلى جانب ولدها في التحريض وفي نزع ثياب الخادمة بالإكراه..

نفت ذلك.. مؤكدة أن ذلك لم يتم

ثم أمر بجلوسها في قاعة أخرى وطلب ابنها زياد.

كان زياد خائفاً مضطرباً.. وقد دخل المحامي معه. في جدل قانوني حول قانونية الاستجواب بغياب ولي أمره، وطلب القاضي من المحامي التريث قليلاً بالدخول ليتعرف على زياد وشخصيته... ثم خاطب المتهم قائلاً:

زياد ماذا حدث لك مع وسيلة؟

- لم يحصل شيء هذه كذابة..

تظاهر القاضي بأنه يعرف كل شيء.. ولكنه يريد أن يطمئن من زياد فيما إذا مارس الجنس معها أم مجرد مداعبة.

- أجاب زياد.. لم أمارس الجنس معها.. فقط نمت إلى جانبها وهي خافت مني وخرجت من الغرفة.

ولماذا مزقت قميصها؟!

لم تسمح لي أن أضع يدي على نهدها ولم تسمح لي برؤية فخذيها..

- وماذا فعلت؟

- حاولت أن أتفرج على جسمها.. رغماً عنها.. ولكنها.. هربت..

- هل قامت الوالدة بتعرية وسيلة من الثياب؟!

- قامت بذلك لأن وسيلة رفعت صوتها عليها، عندئذ قالت لها ماما تخافين على جسدك؟ ونزعت فستانها عنها.. و..

- هل شاهدت عورة وسيلة؟

- أمي طلبت أن أتفرج عليها عارية.

طلب القاضي من المحامي الدخول، أعاد عليه الأسئلة، وأجاب زياد عليها بحضور المحامي، وبعد أن سمع ما لدى المحامي من أقوال، قال القاضي أن زياد قاصر لم يبلغ السن القانوني.. ولذلك سنضعه موقوفاً في سجن الأحداث تحت الرعاية، بإمكانكم أن تتقدموا بطلب الإخلاء.. ولكننا سنوقفه منذ الآن..

حاول المحامي إثناء القاضي عن قراره.. ولكن القاضي أطلعه على محضر التحقيق واعتراف زياد بالوقائع، وادعاء والدته الكاذب بملكية مشغولات ذهبية ليست لها وعجزها أن تقدم دليلاً على صحة أقوالها..

خرج المحامي لإعلام فاتن الجلفي بتوقيفها وولدها واعتبارها محرضة فصرخت غاضبةً.. ورفعت صوتها بالشتائم والتهديد في قاعة المحكمة في حين كان رجال الشرطة يقتادون ابنها مقيداً بالسلاسل مساقاً إلى سجن الأحداث.. وأمسك زوجها بها يحاول تهدئتها في حين طوقها رجال الشرطة وأوصلوها إلى خارج المبنى برفقة زوجها والمحامي..

(١٤)

بذل المحامي أحمد المحمود جهداً كبيراً في الدفاع عن وسيلة وقد ساعده على ذلك قوة شخصيتها وقوة منطقها.. وكان إبرازها لآثار الاعتداء عليها واحتفاظها بثيابها الممزقة.. والكدمات وآثار أظافر زياد على جسدها برهاناً على صدق أقوالها.. وقد استطاع المحامي تقديم طلب الإخلاء وأقنع النيابة العامة به.. وصدر الحكم بإخلاء سبيل وسيلة ووالدها بكفالة وأخرجهما المحامي أحمد المحمود بسيارته إلى كراج القرية..

مدّ يده خضر وسوف إلى جيبه ليعطي المحامي بعض النقود التي جمعها أهل القرية له كسلفة على أتعابه.. لكن المحامي رفض ذلك قائلاً:

- قمت بذلك دفاعاً عن حق، وانتصاراً للمظلوم.. اترك ما بيدك لعائلتك فأنا لست بحاجة والحمد لله.. فانحنى خضر وسوف يريد تقبيل يديه فسحب أحمد المحمود يده ورفع رأسه، وودعهما وانصرف.

ما إن وصل الخبر إلى القرية بإخلاء سبيل وسيلة ووالدها حتى عمت الفرحة وجاء الأهالي مهنئين معتبرين أن قضية وسيلة هي قضية القرية وكرامتها وتشكلت لجنة من الشباب لمتابعة الموضوع وكتابة العرائض ضدّ الاستغلال والعبودية، وطلب الشباب من الأهالي عدم تأجير بناتهم أو وضعهم خادمات في المنازل وخاصة إذا كنَّ أطفالاً دون سن الرشد..

ما إن علم عزمي منصور بالخبر من صديقه عمار محمود الذي يتردد عليه أسبوعياً، حتى سارع بالمجيء إلى القرية وزيارة خضر وسوف وعائلته..

كان عمار محمود قد أحب غزالة وسّوف إلى درجة الجنون.. ولم ينجح بالزواج منها ومرض من حبها.. ولكن غزالة تزوجت وأنجبت.. ولم يكن

خضر وسوف سوى عم غزالة ولم تكن وسيلة سوى نسخة قريبة الشبه بغزالة مع الفارق بالعمر بينهما. خاصة وأنها ابنة عمها...

كان لدى عمار شغف بزيارة العائلة والتعرف على وسيلة التي لم يشاهدها في حياته فقد كانت وسيلة طفلة في العاشرة من عمرها عندما مرض في حب غزالة.. وكان مريضاً عندما أرسل خضر وسوف ابنته خادمة لمدة أربعة سنوات عند فاتن الجلفي..

في هذه السنوات أصبحت وسيلة شابة في السادسة عشرة من عمرها.. وعمار محمود صار متعلماً بفضل عزمي منصور وجهوده وهو يستعد للتقدم إلى الشهادة الإعدادية.. كان يكبر وسيلة بثماني سنوات تقريباً.. بدأ يتخيَّل.. كيف هي وسيلة.. هل تشبه غزالة؟ كان ينتابه شعور بالأمل وشعور بالقلق وربما بالخيبة.. ولكنه كان فرحاً أن يرافق عزمي منصور إلى منزل خضر وسوف.

ولم يمض يومان حتى كان عزمي منصور في القرية برفقة عمار يدخلان منزل خضر وسوف.. والأستاذ عزمي هو ابن القرية ومعروف لدى الأهالي واستطاع أن يكوّن له شعبية وسط الشباب وبين المواطنين بالرغم من مقاومة رجال الدين له وخاصة الشيخ محمد النجار وبعض الأهالي الواقعين تحت تأثيرهم والمتنفذين الذين يجعلون نشر التخلف وسيلة لبقاء نفوذهم واستغلالهم للفقراء من الأهالي..

رحب خضر وسوف وزوجته بالأستاذ عزمي ومرافقه وطلب التعرف على وسيلة، وما أن خرجت وسيلة بقوامها الجميل ووجهها الأبيض يحيط به شعر كستنائي اللون وعينان بلون الزيت وابتسامة واثقة وصوت ينساب كالموسيقى حتى خفق قلب عمار ووقف مشدوهاً لا يزيح عينيه عنها وراح يستعرض شريطاً من الذكريات.. لم يخرجه من شروده إلا صوت الأستاذ عزمي قائلاً:

عمار أَخبَرني بالحادثة وتألمت كثيراً.. ولما ذهبت إلى المحكمة قيل لي إنك خرجت مع وسيلة وقررت زيارتكم وتهنئتكم والتعبير عن التضامن معكم.

- أجاب خضر وسوف أهلاً بالأستاذ وأهلاً بالسيد عمار.

قال الأستاذ عزمي موجهاً الكلام إلى وسيلة:

وسيلة أعرف أنك تعرضت لشيء مؤلم جداً.. ولكن خرجت من الأزمة بنجاح.. ونحن سنتابع الموضوع مع المحامي لدى المحكمة حتى الحصول على حقك كاملاً.. وإدانة هؤلاء الأوغاد ولكن ما أريده منك أن تنفذي بعض النصائح لكي تتخلصي نفسياً من آثار الحادثة عليك أن تقومي بنشاط جديد، مثل زراعة الحديقة، تربية الدواجن، القيام بنزهة مع الصبايا وأن تخرجي من الانطواء والعزلة..

وأنا سأرسل لك مع عمار جهاز راديو لسماع الأغاني والموسيقى.

قالت والدتها: ذهبت إلى شيخ القرية وكتب لها حجاباً لحمايتها من العين والحسد والخوف والجن وقد نصحني الشيخ أن أذهب معها لزيارة الأولياء الصالحين.

نظر الأستاذ عزمي لها بإشفاق قائلاً:

- مهمة الشيخ غير مهمتنا.. ولكن لا يجوز أن نعتمد على الحجاب وننسى ما يجب القيام به.. لا بدّ يا أخي من العمل ونسيان الحادثة بالإرادة والتصميم.. سأزوركم مرة ثانية.. أما خضر وسوف، فقد شكر الأستاذ عزمي على زيارته.. في حين وقفت وسيلة احتراماً وصافحت الأستاذ عزمي.. وعمار محمود بابتسامة ساحرة..

لم يستطع عمار أن يخفي مشاعره في هذه الزيارة وقال للأستاذ عزمي:

شعرت يا أستاذ وأنا أتأملها كأني أتأمل غزالة.. لقد توهج الحب في قلبي.. وشعرت بيدها أنها وهي تصافحني كأنها تلامس شغاف قلبي.. سأعود لزيارتهم مرة أخرى يا أستاذ.. أرجو أن تخلق لي التبرير لذلك وأن ترسل الراديو على جناح السرعة كي لا أعود إليهم إلا ومعي هديتك الموعودة.

ابتسم الأستاذ عزمي قائلاً:

عمّار.. الحب هذه المرة ليس جنوناً أو ذهاباً للشيخ النجار.. ادرس الموضوع جيداً وتأكد من قلبك.. وأخبرني لكي نخطط من أجل أن ينتصر الحب..

شكراً يا أستاذ عزمي والله أنت أخ وأب أنت الأمل والحلم الله يحميك ويحفظك.

انصرف عزمي منصور يفكر بالحلول الاجتماعية لهذا الظلم الاجتماعي وفي نفس الوقت تمنى لو استطاع أن يتعرف على الفتى زياد وما الذي دفعه إلى هذا الطيش الجنسي وهو في الخامسة عشرة من عمره وهل للبيئة والتربية دور في ذلك..؟ وقرر أن يتصل بالأستاذ الدكتور محسن درويش الأخصائي بعلم النفس ليدرس معه هذه الظاهرة.. وهل هي ظاهرة فردية أم أنها تتكرر نتيجة ظروف اجتماعية أو نفسية أو وراثية..

في اليوم التالي لتوقيف فاتن الجلفي وابنها زياد، ضجت المدينة بالحادثة وصارت حديث المقاهي. أما فارس الشريف، الشاب الجامعي في القرية فقد نشر القصة في جريدة الوحدة كما شاهدها شخصياً - أما المحامي عن فاتن الجلفي وابنها زياد فقد انخرط في الإجراءات القانونية من أجل إطلاق سراحهما بكفالة وقد نجح في إطلاق سراح فاتن، أما زياد فقد تقرر تأجيل الإخلاء عنه ريثما تنتهي الاختبارات النفسية التي قرر القاضي أن يقوم بها الأخصائي بالأمراض النفسية الدكتور محسن درويش.

كانت تلك الأيام تمر على فاتن الجلفي كأنها شهور فلم تعرف في حياتها معنى الحجز الاحتياطي في سجن النساء، ولكن ما شاهدته في السجن من نساء لكل واحدة منهن قصة بحد ذاتها جعلتها تدرك حجم مأساة هذا النوع من البشر.. أما نساء السجن فالبعض كان شامتاً بها باعتبارها سيدة ثريّة ومتعجرفة والبعض الآخر كان يخاف منها ويبتعد عنها حتى لا ينالهن عقاب المسؤولين عن السجن إذا انزعجت فاتن الجلفي من تصرفات إحداهن..وقد تعجب جيران فاتن من كثرة طلبها للذهاب إلى مدير السجن.. حتى إن

السجينة حفيظة باطوس كانت تغمز بعينيها وتهز برأسها وتضحك ساخرة قائلة المدير يحب الجميلات وفاتن اشتاقت لزوجها.. ويضطر النساء مشاركتها الضحك.. ثم تتغير ملامحها قائلة لهن: الستر.. الستر يا جماعة الله يستر على من يحفظ السر..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١٥)

دخل زياد إلى العيادة النفسية للدكتور محسن درويش برفقة ضابط الشرطة وسلمه الملف المحال إليه من القاضي.. تأمل الدكتور محسن الملف ونظر إلى زياد دون أن يسأله عن شيء وطلب منه الدخول إلى غرفة الأجهزة الإلكترونية والكهربائية، وبعد أن أخضعه لبعض الفحوص.. وأجرى له تخطيطاً كهربائياً للدماغ.. تفحص سائر أنحاء الجسم بما فيه الأسنان والفكين والأنف ومحيط الرأس وحجم الأصابع والأطراف وجهازه التناسلي عاد به مرة أخرى إلى العيادة وبدأ الأسئلة.

كان الدكتور محسن درويش قد درس الطب النفسي في فرنسا.. وكان إلى جانب شخصيته العلمية يملك شخصية نفاذة يستطيع الدخول منها إلى قلوب المرضى وكسب الثقة منهم مهما كانت أعمارهم وطبقاتهم الاجتماعية، حتى إن البعض في المدينة كان يقول عندما تسمع أسئلة الدكتور محسن للمريض تظن أن الدكتور يشارك المريض مرضه.

وقف زياد مضطرباً خائفاً.. وطمأنه الدكتور بأسلوبه المعروف أن الجلسة بين صديقين وأن زياد سيكون صديقه منذ اللحظة وسأله قائلاً.

زياد احكِ لي عن معاملة السيدة والدتك لك.. ما تذكره في الطفولة الأولى.. حاول أن تتذكر كل شيء.. لأن ذلك مفيد في إطلاق سراحك والعودة إلى المنزل.

جلس زياد على الكرسي قائلاً:

أنا وحيد بين أختين وأمي منذ كان عمري ثلاث سنوات، لم تتركني، كانت تقول إنها أرضعتني ثلاث سنوات.. ومن كثرة التصاقي بها كنت لا أنام إلا إذا وضعتني على صدرها أمسك شعرها أو نهديها حتى أنام.. يصمت..

يطلب الدكتور منه متابعة الكلام. كنت أذهب لإخوتي البنات لأمسك بصدر كل واحدة منهن.. وكانا يمنعاني من ذلك فأعود لأمي وأنام قربها أعبث بشعرها وصدرها حتى أنام..

كانت أمي تشتري لي لعباً على شكل عرائس فأقوم بتعرية العروسة وتفكيكها فلا أرى لها نهداً ولا شعراً.. فأكسرها وأرميها..

يقول الدكتور تابع يا زياد

ذهبت إلى المدرسة.. كنا نحكي قصص البنات، الصبيان كانوا يتحدثون عن أعضائهم التناسلية وعن الشعر الذي بدأ بالظهور على أجسادهم وكنت أشاركهم ذلك.. وبدأت أشعر بميل شديد إلى الجنس.. يتوقف زياد.

الدكتور تابع يا زياد لا تخف من شيء أنا صديقك..

زياد يروي قصة أحلامه الجنسية وأن مادة تخرج منه..وقد شاهدتها أمه على سرواله الداخلي.. وجاءت مسرورة تقول له أدركت الرجال يا زياد..

لم أفهم العبارة.. ولكني كنت أرى الخادمة وسيلة في الأحلام..

سأل الدكتور هل شاهدت جسم الخادمة وهي عارية؟

- نعم كنت أنظر إليها من ثقب باب الحمّام دون أن تراني.. كنت أحب النظر بين فخذيها..

- الدكتور وهل كانت أمك تعرف ذلك؟!

- كانت تراني أحياناً وتبتسم.. وكانت تشرح لي أن البنت عند بلوغها تشتهي الصبي كما يشتهيها.. وكانت تشجعني على اللعب مع الخادمة..

- هل حاولت أن تمارس الجنس مع الخادمة؟

- كنت أحب اللعب بنهديها ورؤية فخذيها وهي تمسح المنزل أو الشبابيك وكنت أتوتر جنسياً.. ولكن كانت تزجرني إذا أمسكت بها أو حاولت تقبيلها..

- وماذا حدث في الليلة الأخيرة مع الخادمة؟.

- وجدت في السينما رجلاً وامرأة شبه عراة يقبلان بعضهما ثم.. أثارني المشهد جنسياً.. وعندما كانت أمي وأبي خارج المنزل.. ذهبت إلى غرفة الخادمة. كانت نائمة على سريرها نمت فوقها وحاولت رفع ثيابها ونزع سروالها فلم توافق وضربتني.. وأغلقت الغرفة على نفسها.. وهكذا..

سجل الدكتور محسن ملاحظاته.. وانصرف لإعداد التقرير.. أمّا زياد فقد خرج مع ضابط الشرطة إلى سجن الأحداث..

أعد الدكتور التقرير وكان يتضمن أن زياد شخص طبيعي ــ ولكن تعلقه بأمه خلق لديه ميل لممارسة تفريغ رغباته المكبوتة مع ميل للعنف الجسدي.. الفتى بحاجة إلى إعادة تأهيل نفسي لإصلاح شخصيته..

رنّ الهاتف في عيادة الدكتور محسن درويش سألت السكرتيرة من على الخط وجاءها الجواب أنا الأستاذ عزمي منصور أريد التحدث مع الطبيب.. وضعت السكرتيرة السماعة ودخلت إلى الدكتور محسن قائلة.. الأستاذ عزمي منصور على الهاتف..

لم يكن عزمي منصور الصديق الأكثر قرباً بالنسبة للدكتور محسن.. فقد التقى معه في محاضرات عديدة في المركز الثقافي ودخلا في ندوات حول الأمراض النفسية والقلق النفسي عند الشباب والانحرافات السلوكية وغير ذلك.

مساء الخير دكتور محسن.

- أهلاً أستاذ عزمي.. كيف الحال؟!

وبعد أن اطمأن كلٌّ عن صديقه من خلال الهاتف.. طلب عزمي اللقاء مع الدكتور محسن درويش وتحدد الموعد في صباح اليوم التالي في العيادة..

كان عزمي منصور يهتم بالأثر الاجتماعي والاقتصادي على السلوك الإنساني ويحاول أن يخلق من خلال التربية والتعليم بيئة صالحة يمكن الانطلاق منها لإصلاح الفرد والجماعة في حين كان الدكتور محسن درويش

يهتم بالبناء الصحي والنفسي للإنسان لكي يكون خلية صالحة في المجتمع، وباعتباره طبيباً كان يدرس عوامل الوراثة والتغييرات الجسدية والفيزيولوجية في الجسم الإنساني وعلاقة ذلك بالدماغ وآلية العمل فيه بالإضافة إلى الدوافع والميول والغرائز وإشباعها وغير ذلك مما يهتم به الأطباء النفسيون..

وكان محور اللقاء دراسة ظاهرة زياد الفقش.. وتطرقا إلى الدور الثانوي للأب واعتباره دوراً هامشياً حيث لم يذكر زياد والده على لسانه، ولا يلعب الأب أي دور توجيهي أو تربوي له ولم يستطع زياد الخروج عن دائرة أمه والاندماج في عالمها الجسدي.. وذكر عزمي للدكتور محسن أنه قابل الفتاة "وسيلة" التي كانت تخدم في بيت فاتن الجلفي وهل يرى ضرورة أن تزوره في العيادة لكي تتخلص من الحالة النفسية لمحاولة اغتصابها.. فرحب الدكتور محسن بالفكرة واعتبرها ضرورية للاطمئنان على صحتها النفسية، وخاصة أن عزمي أصبح شديد الاهتمام بها بعد أن أفصح عمار محمود عن رغبته بالزواج منها إذا وافقت وسيلة وأهلها على الزواج منه..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١٦)

الجوع كافر، والليل كافرٌ في سواد، وعجز المرء عن الرؤية فيه، أما إذا حلّ الجوع والحرب وفقدان الأمن والبطالة والمرض فما العمل؟

جميع الرجال المتقدمين في السن عاشوا سنين الحرب العالمية الأولى من القرن العشرين وشهدوا مآسي سفر برلك.. أما من عاصر نكبة فلسطين وما حلّ بها فكان قصة جديدة عن ظلم الإنسان للإنسان واقترابه من الحيوانية بأخطر الغرائز وأفظع الجرائم.. تلك المآسي ألهمت علماء النفس والدارسين للبحث عن أصل الجريمة في نفس الإنسان في الإطار الفردي والجماعي، ودرسوا علم الوراثة والعقد التاريخية وأثر المعتقدات الدينية والسياسية على سلوك الأفراد والشعوب، وتأثر الفرد والجماعة بالتربية والتعليم والحضارة، والبعض تساءل لماذا أقدمت الإمبراطوريات الحديثة على جرائمها ضدّ الإنسانية، وكيف أن القوة هي معيار الحق.، وليس الحق بمفهومه القانوني وكيف ابتعدت الأخلاق بمفهومها الاصطلاحي عن الأخلاق بمفهومها السياسي والمصلحي.

أهالي القرية كان البعض منهم ينام على الطوى والجوع ينهشه بنابه فينصرف الجياع إلى الطبيعة بحثاً عن الثمار البرية والنباتات التي يمكن أن تؤكل مسلوقة أو كما هي في الطبيعة.. بعض الموسرين في القرية كانوا يقومون بإطعام بعض الفقراء. والبعض كان يوزع الطعام مع اللحم في الأعياد والنذور للأولياء الصالحين.. والمستفيدون دائماً رجال الدين الوسطاء مع الله والأولياء وكذلك أصحاب النفوذ، أما الفضلات فللفقراء وعابري السبيل الذين يقصدونهم في موسم الأعياد والنذور.

كان أول الصيف يوحي بموسم جيد الثمار والخضار والفواكه، المواسم محطات انتظار وهي تقف بالصف منتظمة كما شاء الله والطبيعة، يقف المشمش في أول اللائحة ثم يليه الكرز وبعد ذلك يأتي الدراق والخوخ..

مصطفى أبو طاسة كان لديه بستان صغير على ساقية القرية، كان مصطفى ينزل إلى الساقية ويحرفها عن مجراها لكي تسقي بستانه الأمر الذي كان يحرم البساتين التي تقع بعده على الساقية من المياه مما كان يرتب حرباً على المياه خاصة في سنين قلة الأمطار وجفاف الينابيع فيحتدم الخلاف وتبدأ الشكاوى بدءاً من المختار وصولاً إلى مدير الناحية وتحل الخلافات بتنظيم الدور في السقاية.. وربما استمد اسم العائلة من الطاسة التي يوضع بها الماء..

فقراء القرية كان هذا الأمر لا يعنيهم ويراقبون الموقف عن بعد ولم يكن في مقدورهم الحصول على الفواكه من بساتين الأغنياء إلا من باب الصدقة والزكاة..

تفتق ذهن نوح النسناس عن فكرةٍ لغزو بستان مصطفى أبو طاسة في عز الظهيرة وكان مصطفى أبو طاسةً قد تجاوز الثمانين من عمره وقلّ بصره وثقل سمعه وكان ابنه يبيع الفواكه في المدينة يوماً ويعمل في البستان يوماً آخراً، ويبقى والده مصطفى في البستان..

درس نوح الموقع جيّداً ووجد أن المياه في بركة في الساقية يقل ماؤها وهي مفتوحة على البستان وتسلل نوح والمجموعة إلى الساقية مشياً على الأقدام ونزعوا ثيابهم ونزلوا إلى البركة عراة تماماً إلا من سروال داخلي وقاموا بطلاء أجسادهم بالوحل الأسود من القدم حتى الرأس فظهروا وكأنهم من الجن الأسود.. ثم ساروا إلى مصطفى أبو طاسة وهو يجلس على حصير تحت شجرة التوت في البستان، ومثّل نوح دور همروش ملك الجن وطلب من مصطفى البقاء في مكانه وإلا سيخطفه الجن أو يضربونه حتى الموت وبدأ نوح بالتحدث إليه قائلاً مصطفى.. أنا همروش ابن هاموش من جن

الطرموش الساكن في بلاد الكاروش شمروش..درموش، طوش مصطفى طوش لا طوش باطوش..

ويقول مصطفى.. أرجوك لا تؤذيني أنا رجل مسن.. خذوا ما تشاؤون من البستان واتركوني ويقول نوح له، مصطفى.. لا تغادر مكانك حتى العصر.. الجن في البستان.. احفظ نفسك وابق في مكانك حتى نغادر المكان.

ويقول مصطفى أمرك يا سيدي همروش.. سأفعل ما طلبت مني..

وما هي إلا ساعة حتى حمل همروش وزملاؤه ما استطاعوا حمله من الثمار ثم نزلوا إلى الساقية وغسلوا أجسادهم بالماء وارتدوا ثيابهم ثم عادوا من حيث أتوا ومعهم ثمار بستان أبو طاسة..

كان ولده سليمان أبو طاسة قد عاد إلى القرية قادماً من المدينة فاصطحب الطعام لوالده وقصد البستان حيث وجد والده في حالة من الخوف والقلق.. وروى له غزو الجن للبستان.. ووقف سليمان مذهولاً برواية والده ووقف بين المصدق والمكذب، وتساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان عقل والده مصطفى سليماً.. وتركه وتجوّل في البستان فوجد الأشجار مسروقة والثمار على الأرض وتتبع الأقدام فوجدها تتجه نحو الساقية.. وانتابه الخوف من عودة الجن ثانية إلى البستان.. واتخذ قراراً باصطحاب والده إلى القرية والذهاب إلى الشيخ محمد النجار صديق والده مصطفى أبو طاسة حتى يضع حداً للجن وهجومهم على البستان وليخلق لدى سليمان ووالده مصطفى أبو طاسة نوعاً من الطمأنينة والشجاعة للبقاء في البستان.

كان الوقت بعد العصر عندما وصل سليمان ووالده مصطفى أبو طاسة إلى منزل الشيخ النجار وروى مصطفى حكايته مع الجن للشيخ.. وما كان من الشيخ إلا أن طلب كأساً كبيراً من الماء ووضعه أمامه على الطاولة وقرأ بعض التعاويذ وهو يضرب بالقلم على حافة الكأس ثم رفع رأسه قائلاً:

الحمد لله على سلامتك يا مصطفى.. كان ملك الجن يقود بنفسه الهجوم على البستان ومعه عشرة من الحراس.. وكان ملك الجن مسافراً وأراد التزود

بالثمار في رحلته والحمد لله أنهم لم يلحقوا بك الضرر ولو وقع في طريقهم فتاة صغيرة أو شاباً صغيراً لكانوا اصطحبوهم معهم ثم طلب ورقة بيضاء كتب عليها بعض التعاويذ ثم لفها وربطها بخيط رفيع بشكل محكم ثم طلب من سليمان أن يذهب إلى البستان ويعلقها في أعلى شجرة قرب الساقية ليمنع الجن من الدخول إلى البستان مرة أخرى..

شكر أبو طاسة الشيخ النجار ثم خرج عائداً إلى المنزل بعد أن دفع للشيخ مبلغاً من النقود.. وكان الشيخ قد طلب اعتبار الموضوع سرّاً.. حتى يفاجئ الجنّ ويؤخذ على حين غرة.. ثم أكد على مصطفى أبو طاسة أن يقوم لمدة سبعة أيام متتالية بقراءة الفاتحة والمعوذتين وترديد بعض الأدعية.. والرجوع للشيخ محمد النجار إذا شعر بأي ضيق أو رأى أحلاماً مخيفة أو تعرض له أحد من الجن بسوء.

في الجانب الآخر كان نوح النسناس وجماعته يتلذذون بأكل ما جمعوه من الثمار، مؤكداً نوح على جماعته بعدم ذكر الحادثة أو البوح بها إلى أحد، على أمل القيام بغزوة جديدة بفكرة جديدة تسند فعلتها إلى الجن..وقال بسخرية: لا نخاف إلا من الشيخ محمد النجار، إذا اكتشف الأمر فإن علينا الرحيل من القرية.. أو الذهاب إلى السجن.. إياكم وإغضاب سيدنا الشيخ.

تظاهر كل واحد منهم بالحفاظ على السريّة والانصراف كل إلى منزله.

أسرع أبو اصطيف إلى مكتب الأستاذ عزمي منصور بخفة الغزال وكان قد استرد عافيته بعد التردد على عيادة الدكتور محسن درويش وأصبح لا يبالي بالجن ولا يذكرهم على لسانه إلا على سبيل النكتة والمزاح. وأدرك أن الأستاذ عزمي لا بدّ أن يكون في منزله، وتابع بهمّةٍ ونشاط إلى المنزل قبل أن يغادره إلى المدرسة.

وجد أبو اصطيف صديقه عزمي في المنزل استغرب زيارته في مثل هذا الوقت..

سأله الأستاذ عزمي هه ما لك يا أبو اصطيف تتنفس بسرعة؟ هل أنت تعبان؟!

- لقد أسرعت بالمجيء إليك من منزلي إلى مكتبك ثم إلى منزلك لعدم وجودك في المكتب.

- خير إن شاء الله يا أبو اصطيف؟

- خير؟! أي خير؟.. لا أدري ماذا حل بهذا البلد؟.

- وما القصة يا أبو اصطيف؟ تكلم..

أخذ أبو اصطيف منديله يمسح عرقه المتصبب على جبينه.. ثم قال:

عندنا في الحارة ابن السقا كان يحب عائشة ابنة الجيران.. والدها رجل شريقي آدمي وشريف يعمل معلم باطون.. وقد طلب الشاب ابن السقا عائشة من والدها فرفض تزويجه له.. لأنه عامل قبضاي وعاطل عن العمل وكل يوم يركب الموتوسيكل ويمشي بالحارة بسرعة جنونية ويخاف الأولاد والنساء منه.

وبعد ذلك ماذا حصل تكلم بسرعة يا أبو اصطيف..

الحادثة يا أستاذ عجيبة لازم أحكيها كما وقعت..

- تكلم يا أخي تكلم..

جاء ابن حرام لوالد عائشة واسمه قدرو الحداد وقال له: إن ابن السقا قد أخذ عائشة بالقوة.. وإن عائشة ليست عذراء..

جنّ جنون قدرو الحداد.. وجاء كالمجنون لابنته وضربها بسيخ حديد كان في يده فجاءه في موضع قاتل.. وماتت عائشة..

وماذا حصل يا أبو اصطيف؟

جاء الطبيب الشرعي وقاضي التحقيق وتبين لدى الفحص بالطب الشرعي أن الفتاة عذراء وأن الخبر كاذب من أساسه وراح الأب إلى السجن والبنت إلى القبر..

ولما ذهبت الشرطة للقبض على ابن السقا للتحقيق معه.. وضع ديناميت على جسمه وفجر نفسه بعدما سمع أن حبيبته قد ماتت.. وهكذا..

حارتنا لا تطاق شرطة هنا.. وهناك.. وتعزية هنا وهناك ولا يدري الإنسان ماذا يقول.. لقد جئت إليك لتسمع القصة مني كما سمعتها في الحارة.

نظر عزمي إلى أبو اصطيف.. نظرة إشفاق.. ثم نظر إلى ساعته دون أن ينطق بأية كلمة.. كان وقت الذهاب إلى المدرسة قد حان.. خرج مع أبو اصطيف إلى الشارع وودع صديقه ومضى إلى عمله..

لاحظ عزمي منصور أثناء سيره في الشارع أناساً يتهامسون، قدَّرَ أن في المدينة الكثير من أمثال أبو اصطيف للتطوع في نقل الخبر وإذاعته، ولكن القصة التي رواها له، لم تبارح مخيلته.

عندما دخل إلى الصف، تطوع أحد الطلاب ليخبره بقصة قتل عائشة من قبل أبيها وهي لم ترتكب ذنباً سوى أنها عشقت.. لم تذهب إلى عشيقها، لم ينل من عذريتها ومع ذلك ماتت مقتولة ومات الشاب منتحراً في لحظة يأس لأن حبيبته قتلت وربما يتطوع شقيقها لقتل ابن السقا لمجرد أنه كان يحب أخته المقتولة.

تحول الدرس إلى حلقة نقاش.. شرح الأستاذ عزمي للطلاب العامل الاجتماعي للجريمة وخاصة جرائم الشرف والثغرات الكثيرة في القانون، ثم شرح العامل الاقتصادي وكم يؤدي الفقر والجهل إلى الانحراف والجريمة.

وأخيراً شرح العوامل السيكولوجية الوراثية والمكتسب منها وكيفية العلاج ودور التربية وعلم النفس في الإصلاح.

في الصباح كان البحر هائجاً بعض الشيء وغيوم سوداء تطل برأسها من الأفق البعيد، كان عزمي قد قرر أن يبقى في المنزل دون أن يذهب إلى القرية أو إلى المقهى.. وكان يفكر في جلسة مسائية مع الدكتور محسن درويش للتحضير إلى مناقشة في الجمعية حول جرائم الشرف والموقف القانوني منها.. وبينما هو في وسط تأملاته يتطلع إلى البحر المزبد..

قرع الباب الخارجي للشقة، راح يفتح الباب فوجد عمار محمود ومعه أخبار القرية لم ينتظر عمار محمود الأستاذ عزمي ليسأله عن الأخبار بل بادره قائلاً..

الدكتور محسن درويش أرسل في طلب عمار.. فأجابه عزمي أعرف ذلك.

ولما سأله ما الأمر يا أستاذ؟ أجابه قائلاً:

قلت للدكتور محسن أن يقابل وسيلة ويتعرف عليها في يوم من الأيام وقلت له إن عمار يخبرها عندما يسمح الوقت بذلك.

قال عمار شكراً يا أستاذ.. ولكن أسمعت ماذا حصل في القرية؟

- لم أسمع شيئاً..

تابع عمار قائلاً:

لقد ألقت الشرطة بطريق الصدفة على بعض الشباب يبيعون بعض المسروقات ومن خلال التحقيق مثلوا السرقات التي قاموا بها من الأهالي ومن الأشياء التي اعترفوا بها سرقة بستان مصطفى أبو طاسة، وتبين أنهم اللصوص وليسوا من الجن كما كان يعتقد أبو طاسة وأولاده ولقد تحفظ القضاء عليهم وساقهم إلى السجن وسيقدّمون إلى المحاكمة.

وأجاب عزمي قائلاً:

من الواضح أن الجرائم تتطور وفق تطور المجتمعات، في الماضي كان الاعتقاد أن الجن هم أسباب المرض.. ثم جاء الطب وتولى حل المشكلة، والآن جاء دور القانون والتشريع الذي يحاسب مرتكبي الجرائم ويأخذهم إلى العدالة..

المجتمع يتطور يا عمار.. وعلينا أن نساعد في هذا التطور.. لقد روى لي أبو اصطيف قصة مؤثرة ومخزنة وعندما ذكر بعضها باختصار أجاب عمار هذه الجرائم تحدث سنوياً يا أستاذ البعض يسميها جرائم الشرف.. وأنا أعرف عشرات الحوادث..

وقبل أن يغادر عمار محمود إلى قريته زوده الأستاذ عزمي بالتعليمات اللازمة.

(١٧)

كانت وسيلة قد اندمجت في مجتمع القرية من جديد تساعد أهلها في أعمال المنزل والحقل، وفي العشيات تسهر مع الصبايا في ضوء القمر تروي لهن حكايات المدينة وقصص الرجال مع النساء كما كانت تسمعها من سيدتها فاتن الجلفي.. وعن نساء المدينة وحفلاتهن في المنازل. وعن مشاهدتها لأفلام خاصة بالعائلة وكانت الصبايا شغوفات بمثل هذه الأحاديث حيث لا يوجد مثلها في مجتمع القرية.

عمار محمود اشتد شغفاً وحباً بوسيلة وكان يتبع أخبارها ويتنزه قرب منزلها وبشعور الأنثى اكتشفت وسيلة ذلك..ولكنها لا تستطيع الاندفاع نحو المجهول مع شاب لم تره إلا في زيارة عزمي منصور لمنزلها بعد عودتها من المدينة والمحكمة، وعمار محمود كان ينتظر الهدية الموعودة من عزمي التي وعد وسيلة بها وهي الراديو.. ولذلك لم يتحدث عمار بعدها مع أحد من العائلة وعلى الموعد معه كان عمار في منزله في المدينة.

رحب الأستاذ عزمي بصديقه عمار قائلاً:

أهلاً عمار. ما الأخبار، ما أخبار وسيلة؟

- اضطرب عمار قليلاً وأجاب:

لم أزرها إلا معك.. أعرف أنها تساعد أهلها في أعمالهم

- قال عزمي: عمار اسمعني جيداً - وسيلة فتاة جميلة وبريئة، إذا كنت تحبها فعلاً فعليك التقدم لخطبتها.. لأن ذلك يساعدها في الاستقرار النفسي والعاطفي ويعزز مكانتها في القرية. ووضع وسيلة حساس جداً..

وتركها أمام الصدمة ونظرة المجتمع لها قد يعرضها لعقدة نفسية خطيرة إذا لم نتعاون على إخراجها منها وبأقصى سرعة.

اسمع يا عمار.. سننزل إلى السوق لنشتري الراديو التي وعدتها بها.. ولكن هذا لا يكفي.. سأعود ثانية لزيارة أهلها في القرية وقد تحدثت مع الدكتور محسن درويش لكي تزوره في العيادة..

إن إعلان خطوبتها سيعطيها ثقة زائدة بنفسها.. وسنقوم برعايتها حتى تنتهي المحاكمة مع مخدوميها فاتن الجلفي وزوجها.. عندما تذهب إلى منزلهم حاول أن نتحدث إليها مباشرة وقل لها إن الأستاذ عزمي سيعتبر نفسه والداً لك وسيزوركم قريباً.. وقل لها إنها فتاة رائعة وسيقوم الأستاذ بوضع برنامج لتعلم القراءة ومن ثم سيهديك ماكينة خياطة بعد أن يضعك في معهد لتعلم الخياطة والتطريز..

في السوق استمر الحديث عن مستقبل عمار وضرورة البحث له عن عمل.. لأن ذلك يجعله أهلاً لتحمل مسؤولية العائلة الجديدة وخاصة أنه حصل على الشهادة الإعدادية، وعرض الأستاذ عزمي عليه وظيفة في التربية والتعليم أو التطوع في الشرطة وترك لعمار أن يختار ما يراه في صالحه في اختيار العمل المناسب..

أجاب عمار فوراً، أرغب في التربية والعمل في مدرسة القرية لأن تكاليف العيش في المدينة لا يستطيع تحملها..

وعده عزمي بتحقيق رغبته وسلمه الراديو بعد أن اشتراه ليقدمه هدية لوسيلة من الأستاذ عزمي، وكانت فرحة عمار كبيرة جداً لأن ذلك سيشكل مفتاحاً للحديث مع وسيلة، وطريقاً للاندماج في قلبين ظامئين للحب كالأرض التي تنتظر المطر بعد انقطاع..

كان الصيف قد حلّ.. وأصبحت لياليه مفتوحة للسمر على المصاطب أو البيادر، القمر يبوح بالعشق لنجمته التي تقترب منه عندما يصبح بدراً وكأنها علامة النضوج والتأهب للوصال، والناس تخفف من ثيابها حتى تتيح

لنسيم الليل أن يداعب الأجساد وأن يتغلغل في الزوايا ما شاء، والحديث يطيب حتى يأخذ النعاس مأخذه فتتهاوى الأجساد وتأوي إلى النوم العميق.. أما العشاق فلهم حديث آخر، تتناجى القلوب فتتشابك الأيدي، يتبادلون القبل، وحده الليل الأمين على الأسرار.. ويأتي الصباح بمسح الظلام ولا شيء إلا الذكريات والأمل الذي يلوح.. وبقايا خبر وآثار تدل على حدث تتناثر شواهده هنا وهناك..

وسيلة الصبية الجميلة كانت كغيرها من الصاعدين للحياة - شعر كستنائي يتدلى كالليل، كانت تضعه أمامها حيناً وعلى ظهرها حيناً آخر، يتمنى القمر أن ينزل إليها، صدر ناهد يرقص عليه نهدان بطران متشوقان إلى من يطفئ اللهيب، وقدٌّ يميس كالخيزران يتوسطه خصر مربوط بشال يفصل بين انسياب الرخام في ساقين ولا أحلى يعلوهما تكور ردف تمنى كل عاشق أن يربط مرساته عليه، وللصبايا أحاديثهن الخاصة عن الجسد والحنين والأحلام والشباب والنصيب، وسيلة لم تدخل في تجربة عشقٍ سابقة ولكنها وهي في ميعة الصبا تتشوق كما تتشوق كل أنثى إلى رجل تحبه، تمنحه جسدها، قلبها، تنجب أطفالها منه، إنها الطبيعة الميل، الشوق، التزاوج لاستمرار الوجود ودورة الحياة، أشياء تتماثل في الطبيعة، الإنسان، الحيوان، النبات، الطيور، الحشرات..

تذكرت وسيلة عمار محمود في زيارته الأولى، نظرت في عينيه، قرأت فيهما مشروع حب لها، كان بريق العين يفضح ما في القلب إنها لغة العيون، أو ما يقول العلماء عنه الإشعاع المغناطيسي، لقد مست كهرباء الحب شغاف القلب.. خواطر كثيرة انتابتها ثم امتدت يداها تعبث بضفائر شعرها ثم تفحصت نهديها.. وكأنها تخشى عليهما أن يطيرا كعصفورين صغيرين ثم قامت إلى فراشها مستسلمة للنوم والأحلام.

كانت الشمس قد بلغت الضحى.. الناس في البساتين والحقول، في ذلك اليوم كان خضر وسوف رب العائلة قد خرج منذ الصباح الباكر للعمل، في

حين نهضت الزوجة للاهتمام بالمنزل والأرض المجاورة له وبالدجاجات والبقرة المربوطة تحت شجرة التوت الظليلة، استفاقت وسيلة من النوم واغتسلت ثم تناولت فطورها وشرعت تهتم بترتيب المنزل من الداخل وتنظيف بعض الأواني..

في منزل آخر من القرية كان عمار محمود يعدّ الدقائق والساعات شوقاً إلى لقاء وسيلة قام منذ الصباح، بحلق ذقنه واغتسل، ووضع العطر على ثيابه ووجهه ونظر إلى نفسه عدة مرات في المرآة المعلقة على جدار الغرفة، وعند الضحى حمل الراديو مفعماً بالأمل على وقع دقات قلبه العاشق، وعلى تخيلاته لصورة وسيلة متسائلاً كيف سيبدأ الحديث، وكيف يمكن أن ينقل رسالة الحب للحبيبة، لم يشعر بالمسافة التي قطعها خلال ربع ساعة مشياً على الأقدام.. وما إن رأى منزل وسيلة من مسافة قريبة حتى استيقظ من تخيلاته واستعادَ تحفزه وانشدّت أعصابه واستعاد هدوءه.. وبطريقة مدروسة قرع باب الدار، فأتاه صوت وسيلة قائلة من في الباب؟!

أجابها، أنا عمار محمود الذي زاركم منذ أسبوع مع الأستاذ عزمي منصور، أسرعت وسيلة إلى باب الدار دون أن تعلم أُمُّها بالزائر الصباحي.. كان قلبها يخفق فرحاً فتقدمت خجولة مضطربة وفتحت باب الدار في نظرة شوق عارمة، قرأها وفهمها عمار محمود.. حيّاها باحترام.. وبدأ الكلام.

قالت وسيلة تفضل إلى داخل المنزل.. دخل عمار وجلس على كرسي خشبي ثم تابعت الحديث..

أهلاً وسهلاً.. دقيقة من فضلك سأستدعي أمي إنها تقوم بالعناية بالبقرة. أعلمت أمها ثم عادت للتو لتجلس مع عمار محمود بانتظار والدتها التي تركت البقرة وذهبت إلى البئر تغسل يديها وتنظف ساقيها من روث البقرة ورائحة الدجاج.. كان هذا الوقت القصير كاف لتسأل وسيلة عمار عن عمله ودراسته وعن الأستاذ عزمي.. وأن يسألها عن وقتها كيف تقضيه في القرية وبعفوية قالت له.

أنت متزوج؟

أجابها لا..

هل أنت خاطب؟

- لا لست خاطباً ولا عاشقاً.. ثم استدرك كي لا تشعر بأنه غير معنيّ بها.. أنا في بداية العشق.. لدي شعور بذلك..

- قالت في المدينة.. أم في القرية؟

- في القرية.. ربما في هذا المنزل

- أطرقت في خجل وأشاحت بنظرها عنه بابتسامة سحرته، ثم خرجت تستعجل أمها في المجيء.

تنهد عمار تنهيدة طويلة ثم جال بنظره في داخل المنزل البسيط.. ثم ابتلع أشواقه في قلبه المحطم، والذي دبت الحياة فيه كما تدب الحياة في الهشيم إذا جاء الربيع..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١٨)

دخلت أم وسيلة الغرفة، فوقف عمار احتراماً لها وحيّاها بأدب وتواضع، وما أن جلسا حتى طلبت من وسيلة إعداد الشاي للضيف ودخلت مع عمار في حوار هادف.. سألته عن قصة مرضه التي أصابته منذ سنوات ومعالجته عند الشيخ النجار وعن وضعه الصحي الآن.

في القرية لا شيء ينسى - الخير والشر، الفرح والحزن، الأمراض والمصائب، الغنى والفقر، حتى الحوادث اليومية تسجل في الذاكرة الفردية والجماعية، يعرفون تاريخ الأموات والأحياء بربطها بالمواسم أو الأشهر أو الأمطار والثلوج، وهناك أسماء ارتبطت بالظواهر الطبيعية مثل ثلجة لأنها ولدت بالثلج ورعد وصخر وريحانة وبحرية وغير ذلك..

سألته أم وسيلة قائلة:

كيف حال أمك؟ لم أشاهدها منذ كنت مريضاً، لقد زرتها للاطمئنان عليك.

- أمي صحتها جيدة.. وقد حمّلتني سلاماً إليك يا خالة.

- شكراً يا ولدي.. وهل تتردد على الشيخ محمد النجار؟

شعر عمار بأنه أمام استجواب منها قائلاً في نفسه إنها تريد بطريقة غير مباشرة التأكد من سلامتي النفسية والعقلية. فأجابها..

الشيخ محمد النجار له فضل عليّ وعلى القرية يا خالتي والزّمان تغيّر، لقد أصبح الطب يداوي كل شيء والدكتور محسن درويش قد عالج كل الأمراض النفسية وهو يزورنا في القرية مع الأستاذ عزمي، لا أتردد عليه لأني انشغلت في الدراسة والعمل في المدينة، ولست بحاجة إليه والحمد لله.

في الدراسة؟! وماذا درست؟

درست وحصلت على الشهادة الإعدادية، وسأدرس إلى البكالوريا، والآن موعود أن أعين معلماً وكيلاً في التربية.

- أنت درست يا عمار.. وتحمل الإعدادية وتستعد للبكالوريا؟

- نعم يا خالة كل ذلك بفضل الأستاذ عزمي منصور الذي فتح الطريق أمامي وأمام كثيرين غيري في المنطقة..وقد استطاع أن يبرهن أن الجن الذي نتخيله هو مرض نفسي بالدرجة الأولى وحرر عقولنا من الشعوذة والخرافة مثل الجن وغيرها.

- ماذا تقول يا عمار؟ الجن خرافة! استغفر الله.

- يا خالة الجن مذكور في القرآن.. ولكن الجن يؤذي العقول الضعيفة، أما العقول الكبيرة المتعلمة لا يقترب الجن منها، هناك أمراض نفسية تصيب الإنسان وبسبب الجهل يقوم البعض بجعل أسبابها من الجن.

- عمار هل الشهادة الإعدادية والأساتذة في المدينة قد لعبوا بعقلك؟

- يا خالة أنا مؤمن بالله، والعلماء من المشايخ على عيني ورأسي، والأولياء الصالحين خير وبركة، ولكن الإنسان العاقل هو أساس الحياة.

دخلت وسيلة تحمل الشاي وكانت غير بعيدة عن النقاش الذي جرى بين والدتها وعمار فجذبها حديثه وهدوؤه.

قالت والدتها لعمار.. تفضل.. اشرب الشاي.

شكرها عمار ثم رشف من الكأس رشفة، أثنى على حسن إعداد الشاي من وسيلة ثم تابع قائلاً: طلب مني الأستاذ عزمي منصور أن أزوركم وأرسل معي هذا الراديو هدية لوسيلة، وقال لي، إذا لم يعجبها يمكن استبداله بغيره.

شكرته وسيلة ووالدتها وما أن تمّ إخراجه من علبته حتى اندهشت وسيلة بالهدية وجمالها، وأدار الراديو عمار وشرح لها طريقة استخدامه وتبديل البطاريات فيه.

ثم همّ بالانصراف.. ولكن والدة وسيلة طلبت منه البقاء لتناول الغداء عندهم.. فاعتذر بلطف.. وقبل أن يغادر قال لوالدتها:

يا خالة طلب مني الأستاذ عزمي أن أقول لكم بأنه يود إلحاق وسيلة بدروس لمكافحة الأمية كما ساعدني وبعد تقدمها في الدراسة سيلحقها بمدرسة مهنية لتعلم الخياطة والتطريز. أجابت الوالدة: تعلُّم.. وخياطة.. ومن يساعدني في العمل؟. أرغب أن تتزوج وسيلة يا ولدي وتتستر.. الزواج للبنت سترة..

أما وسيلة فقد تهلل وجهها بالفرح لهذه الأخبار السارة وللراديو الذي أصبح يصلها بالعالم ويؤنسها في جو القرية وخاصة في أزمتها الأخيرة التي مازالت تعاني منها.. وقد شعرت لأول مرة أن قلبها يخفق بحب عمار.. وشعر هو كذلك من لغة العيون والابتسامات.. لقد خرج واثقاً من حبيبته يفكر في برنامج الزيارة القادمة - استطاع عزمي منصور بخبرته في علم النفس وبمشاوراته مع الدكتور محسن درويش أن يبدأ رحلة العلاج غير المباشر بواسطة الراديو للتغلب على الصدمة النفسية التي تعرضت لها وسيلة.

كانت إذاعة دمشق تقدم برنامجاً توجيهياً عن الصحة النفسية، وكان برنامجاً آخر يقدمه المحامي نجاة قصاب حسن، يشد المستمعين.. وكان برنامج أبو فهمي وأم كامل وغيرهم من البرامج التي تحرص وسيلة على الاستماع إليها، فشكل ذلك راحة نفسية لها وفتح وعيها على كثير من الأشياء.. كان له أكبر الأثر على حماسها لتعلم القراءة والكتابة وفق البرنامج الذي أعده الأستاذ عزمي منصور لها..

خرج عمار مجروحاً من أسئلة والدة وسيلة عن مرضه السابق وتردده على الشيخ محمد النجار، شعر أن هذه المرأة قد قرأت أفكاره بحس المرأة الخبيرة وعمق تجربتها الحياتية بأنه يريد ابنتها فأرادت التأكد من سلامته النفسية والصحية، وتذكر عمار أن الماضي يترك آثاره على الحاضر والمستقبل، إنه لا ينكر ماضيه ولا يتبرأ منه، لقد كانت تعرف هذه المرأة أن

عمار في مراهقته قد أحب غزالة وسّوف وهام بها، ولكن غزالة لم تشعر بهذا الحب وتزوجت.. وقد تحرر عمار من آثار الماضي ثم خاطب نفسه متسائلاً.. كيف لهذه المرأة الأمية الجاهلة أن تستجره لمعرفة رأيه بالشيخ النجار وفضائله وكذلك رأيه بالجن وبالأولياء الصالحين.. وتمنى لو عرف رأي وسيلة بالنقاش الذي دار بينه وبين أمها عن كل هذه القضايا. وصل المنزل، كان وقت الظهيرة قد سكن المكان، جلس في المنزل وتمنى لو يغادر القرية إلى المدينة ليلتقي مع الأستاذ عزمي ليطلعه على كل هذه التفاصيل، لكنه طلب من أمه إعداد الغداء له.. ثم ذهب إلى النوم يتقلب في أحلامه..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(١٩)

في الصباح استيقظ عمار محمود مبكراً، كان قد قضى ليلته مُسهداً، أمه لاحظت قلقه وتقلبه في الفراش، ولكنها لم تسأله في الليل.. كانت الأم لا يفارقها المرض ومعاناته عند عمار في المراهقة وذكرياته وكيف مرَّ العام الذي مرض فيه وكأنها السنوات الطوال، كانت تخشى سطوة الجن وكانت قلقة من عودة هذه الجنيّة الصعبة إليه، ولكنها كانت تستريح لكلام الشيخ النجار لها كلما زارته بأن عمّار قد تحرر نهائياً وأن التعاويذ والكتابات التي يكتبها لعمار قد جعلته مُحصّناً ضدّ الجن..

أما والده الذي كان يستيقظ فجراً للصلاة فقد لاحظ الاستيقاظ المبكر لولده، وكان يؤنب عمار على عدم أدائه للصلاة في أوقاتها وأنه أصبح لا يتردد على الشيخ النجار كما أنه لا يرافق أمه في زيارتها للأولياء الصالحين، وبالرغم من أن الأستاذ عزمي منصور قد نجح في إقناع عمار بالعودة للدراسة وحصوله على الشهادة الإعدادية وطموحه لدراسة البكالوريا.. كان أبو عمار لا يرتاح للأستاذ عزمي ومحاولاته لإضعاف تأثير رجال الدين على الأهالي وعدم إيمانه بالنذور التي يقيمها البعض للأولياء ويجاهر الأستاذ عزمي بدعوته بأن الله لا يحتاج إلى وسطاء وأن الإنسان يجب أن يواجه الحياة بالعلم والعمل.. ويعتبر أبو عمار دعوة الأستاذ عزمي إضعافاً للإيمان ومحاولة لزعزعة الثقة برجال الدين والأولياء الصالحين. أنهى الوالد صلاته.. ثم جاء إلى عمار وسأله:

مالي أراك قلقاً على غير عادتك؟

- أتهيأ للذهاب إلى المدينة واللقاء مع الأستاذ عزمي أجاب عمار.

- وماذا أعد لك الأستاذ عزمي؟ ألا تملُّ منه؟

ــ سنقوم بزيارة مشتركة للدكتور محسن درويش

ــ زيارة الدكتور محسن درويش؟!.. الطبيب النفسي المشهور

ــ نعم الدكتور محسن درويش.. الطبيب النفسي المعروف الذي يداوي الناس في المدينة والريف

ــ عمار.. صارحني.. قل لي ما سبب الزيارة؟ ثم تابع قائلاً:

بالأمس حدثني المختار وبعض الوجهاء أن الأستاذ عزمي وبعض المتعلمين في القرية من معلمين وطلاب قد أسسوا جمعية النهضة التعاونية وأنت معهم..

قل لي.. ألا يغضب ذلك الحكومة، ألا يقسم القرية إلى كتل وأحزاب.. ما لنا ولهذه الأشياء يا ولدي.. ماذا سنكسب من ذلك؟

أجابه عمار يا أبي هذا عمل لصالح القرية والعمل على اتحاد الأهالي في سبيل مصالحهم وتحسين حياتهم وتعليم أبنائهم..

الأستاذ عزمي والدكتور محسن وغيرهم سيعالجون المَرَض ويعلمون التلاميذ ويكافحون الجهل.. العمل ليس موجهاً ضدّ أحد يا والدي..

قال الوالد: على بركة الله يا ولدي ربنا يجلب الخير على الجميع..

كانت الشمس بدأت تصعد رويداً رويداً نحو السماء، تتغلغل أشعتها في النوافذ والأبواب وتمنح بركتها للأرض وللإنسان.. في تلك اللحظة ودع عمار والديه وسار نحو باص القرية المتجه إلى المدينة.

في الرحلة كان عمار يتأمل الحقول والمزارع والبيوت، ومشوار لا يفارقه ويلحّ عليه بالتساؤل ماذا سيكون موقف والده ووالدته إذا فاجأهم بنيّة خطوبة وسيلة بنت خضر وسوف، وخاصة أن عائلته أعلى منزلة من عائلتها فكيف ووسيلة كانت خادمة عند الأثرياء في المدينة، وهو يعرف أن المجتمع ينظر إلى الخادمة نظرة ازدراء فكيف سيتقبل الأهل ذلك بعد انتشار خبر تعرضها للاغتصاب بين الأهالي.

كان يستشعر ذلك مسبقاً، ولكن الأستاذ عزمي قال له في مناقشة الموضوع معه، إن النظرة للمرأة في مجتمعاتنا نظرة متخلفة وظالمة، وإذا كانت الأقدار قد دفعت وسيلة للعمل لدى الآخرين وتعرضت للظلم فما ذنبها وهي الفتاة المستقيمة الأخلاقية التي فضلت السجن والجوع على حياة الذل والعار. أفكار شتى ظلت تراوده، وخطر له تساؤل طرحه على نفسه، ماذا لو اعتبرت والدة وسيلة أن تعرضي لعارض صحي كاد أن يودي بي إلى الجنون سبباً في رفض أهلها إعلان خطوبتي على وسيلة..

حمل أفكاره ووضعها على طاولة الأستاذ عزمي منصور الذي كان يستعد لزيارة الدكتور محسن درويش في عيادته وبعد أن شرح له لقاءه مع عائلة وسيلة وسوف وشكرهم على هديته حتى اقترح عليه الأستاذ عزمي اصطحابه إلى عيادة الدكتور محسن درويش.

كان الدكتور محسن درويش يرتاح للأستاذ عزمي وخاصة أنه أخذ على عاتقه مهمة صعبة في توعية المجتمع ضدّ العادات والتقاليد القديمة التي تساهم بالتخلف ونشر الجهل والإيمان بالشعوذة والانشغال بالجن والسحر، وكان الدكتور محسن يرى كما الأستاذ عزمي أن هذه المسؤولية كبيرة جداً لا يستطيع فرد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته أن يقوم بها، وكان الدكتور محسن يدعو إلى الانخراط بعمل جماعي منظم من أجل ذلك وكان يدعو إلى تحميل الحكومة مسؤولية نشر العلم ومكافحة الجهل والتصدي للشعوذة والدجل والفساد في المجتمع، أما الأستاذ عزمي، فكان يلحّ على فكرة الوعي الفردي على التربية والتعليم وأن إصلاح الفرد والأسرة لا بد أن يؤدي إلى إصلاح المجتمع وكان يؤمن بأن إضاءة شمعة في الظلام أفضل من البقاء فيه، وأن كل خطوة نخطوها على درب الإصلاح ستشكل طريقاً واسعاً في المستقبل.

وصل الأستاذ عزمي يرافقه عمار محمود إلى عيادة الدكتور محسن فاستقبلهما بحفاوة بالغة وبعد أن أعدت السكرتيرة القهوة لهما قال الأستاذ عزمي:

- دكتور محسن سأزف لك بشرى بأننا شكلنا في قرية المرج جمعية النهضة التعاونية وسنقوم بإنشاء جمعيات أخرى في القرى المجاورة.. وإذا نجحت التجربة سننقلها إلى قرى أخرى في المحافظة.. وتابع قائلاً:

هدف الجمعية تشجيع العمل الجماعي في الزراعة وإرشاد الفلاحين إلى مصالحهم وزيادة إنتاجهم ونشر الوعي العلمي والصحي بينهم.. وسنحصل على ترخيص رسمي من الحكومة..

- سأله الدكتور محسن ومن هم الأعضاء؟.

- الفلاحون في القرية ووجدنا أن ندخل المتعلمين منهم كأعضاء والشباب كمشاركين..

- وهل للمرأة دور في الجمعية..

- أقنعنا بعض المعلمات وبعض النساء المتعلمات بالانتساب، وسنفتح فصلاً لمكافحة الأمية بين الرجال والنساء في القرية.

- حسناً وما المطلوب مني؟

- المطلوب منك زيارة القرية مرة واحدة في الشهر تقوم فيها بإجراء الكشف الطبي النفسي على الحالات التي تعرضها الجمعية.

- حسناً سأفعل ذلك ولكن هذا يحتاج إلى وعي من المريض، لأن البعض يخلط بين المرض النفسي والجنون.. وأعرف بعض المرضى الذين يفضلون الذهاب إلى المشايخ والأولياء.. بدلاً من العيادة..

- هذا صحيح.. ولكن الشباب سيبذلون جهداً بذلك..وها هو الأخ عمار محمود أحد هؤلاء الشباب الناشطين في القرية.

ابتسم عمار ابتسامة خفيفة.. وشكر الأستاذ عزمي على ثقته به، ولكنه رجع بذاكرته ومرضه وتردده على الشيخ النجار وجهود الأستاذ عزمي في معالجته النفسية وأخذه إلى الدكتور محسن درويش في العيادة والتعرف عليه.

قال الدكتور محسن.. جهود مباركة، سأفعل ما أستطيع لإنجاح مشروعكم، ولكن لم تحدثني عن الفتاة التي وعدتني بالاطلاع على صحتها النفسية ومشكلتها الأخيرة..

أجاب عزمي: مازلت أحاول أن أحضرها لك بعد إقناعها بالزيارة، صحتها النفسية تتحسن باستمرار.. بالأمس أرسلت لها جهاز راديو صغير مع عمار.. وسأراقب النتائج في الأيام القادمة حسناً.. والتفت إلى عمار يسأله.

ما رأيك بها بعد أن شاهدتها مؤخراً؟

احمر وجه عمار خجلاً.. وكأنه في جلسة تحليل نفسي.. وشعر أن الدكتور محسن قد قرأ في عينيه شيئاً ما، أو أنه صدرت عنه حركة لا إرادية أثناء ذكر وسيلة فاعتدل في جلسته قائلاً وحالتها العاطفية كيف هي؟

حالتها مستقرة، عندما تحدثت معها، سألتني هل أنت خاطب أو عاشق، وأين توجد من تحبها..

وعندما قلت لها في القرية وفي هذا المنزل، شعرت بالارتياح.. ولكنها لم تشعرني بأنها مستعدة لمبادلتي الكلام العاطفي.. ربما لأن أمها كانت قريبة منها.

ضحك الدكتور محسن قائلا: وقعت في الغرام يا عمار..

ابتسم الأستاذ عزمي مؤكداً ذلك.. ولكن عمار لاذ بالصمت الخجول.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٢٠)

خضر وسوف الفلاح النشيط والعامل الموسمي يذهب كل صباح في طلب الرزق وعندما لا يجد عملاً يبقى في أرضه الصغيرة، يحرثها يزرعها ينظفها من الأعشاب، ذات ليلة من أعوام مضت رجع إلى المنزل خائباً متعباً، كان الأطفال قد ناموا جميعاً، بقي مع زوجته يشكو إليها همّه ومتاعبه، إنه الليل كاتم أسرار الناس، الفراش الذي ينام في أحضانه المتعبون ويسهر على أنغامه العشاق الوالهون والعذاب هو العذاب يجتره الناس الفقراء كما تجتر الحيوانات طعامها، كثيراً ما تشكل استعادة الألم نوعاً من تقبل العذاب والمثل يقول الصبر مرٌّ بطعم حلو، استعاد خضر بألم شديد وندم يوم قرر أن يرسل ابنته وسيلة خادمة، كادت دموع خضر تسيل من عيونه عندما أسند رأسه إلى حضن زوجته، كان يائساً محبطاً لا يدري ماذا يفعل، كان الكلام يخرج منه بصعوبة كقلع الشوك، رفع رأسه ونظر في عيني زوجته قائلاً:

يا غنيمة أريد أن أقول لك شيئاً هو على لساني كالنار، وسامحيني إذا لم يعجبك الرأي.. إن الأفكار في داخلي كالجمر على جسدي لا أستطيع تحمله..

قالت زوجته:

خضر قل ما تشعر به.. أنا رفيقتك في الفرح والحزن، أتحمل معك كل آلام الحياة..لا تخفِ شيئاً قل ما تشعر به.. سأكون معك في كل ما تراه خيراً بإذن الله.

- نحن عائلة فقيرة يا غنيمة، والأرض لا تعطي ما يكفي.. والمصاريف كثيرة.. وأنا أبحث عن عمل منذ أسابيع لم أعمل سوى ثلاثة أيام دفعت نصفهم مصاريف طريق..

ما رأيك يا غنيمة.. ثم تحشرج صوته وابتلع كلماته.. أسرعت الزوجة وقدمت له كوباً من الماء وتابع قائلاً:

ما رأيك أن نضع وسيلة خادمة في بعض البيوت، ومن أجرتها نصرف علينا وعلى إخوتها؟

- أعوذ بالله يا خضر، وسيلة خادمة!؟ هل أصابك الجنون يا رجل؟ طفلة عمرها اثنتا عشرة سنة ماذا سيقول الناس؟ كيف سنواجه أهل القرية؟

- يا غنيمة.. لا يوجد طريق آخر سوى التسول.. أشعر أني أمشي على جمر النار..

- ألا يوجد طريقة أخرى نعيش منها؟

- مثل ماذا؟.. فكرت كثيراً.. ولم أجد طريقة أخرى

- نشتري بقرة أو عنزة.. نشتري بعض الدجاج.. فكر في الموضوع.

- أنت وجدت الحل يا غنيمة، نضع وسيلة خادمة لبضع سنوات ونشتري بقرة وإذا وفقنا الله بها وكان دخلها جيداً.. تخرج وسيلة من الخدمة..

- كما تريد يا خضر.. الأمر صعب علي ولا أتصور كيف ستغيب وسيلة عن عيني.. وكيف سأعرض الموضوع عليها، كيف ستتقبل هذا الأمر؟

- هذا الأمر أصعب عليّ من النار.. ولكن ليس لدي حلٌّ آخر. استعاد خضر المشهد بألم محبوس وتذكر كيف تصدت الأم لهذه المهمة.. ونجحت في إقناع وسيلة بالأمر.. وهكذا عملت وسيلة في منزل فاتن الجلفي.. وحصلت الحادثة التي جعلت الأب والأم يندمان على فعلتهما.. كان هذا المونولوج الذي دعاه لوضع وسيلة خادمة في المدينة يقرع وجدانه بعنف ويأتي إليه كالكوابيس، كان يرغب أن يلقيه عنه - أن يتخلص منه.. ولكنه لا يستطيع ما أصعب النوم ما أصعب الشعور بالألم. إنه كالنار المحرقة.

لقد تحملت وسيلة المهمة بألم ووعي وخلصت من الأزمة بأقل النتائج سوءاً.. وقد ارتاحت الابنة نفسياً لوقوف العائلة معها ووقوف القرية إلى جانبها..

وهاهي تستعيد صحتها النفسية وتجد قلبها يخفق لأول مرة في حياتها بالحب.. إنه عمار محمود ذلك الشاب المهذب والجميل جاء يعزف على أوتار قلبها..

كانت العائلة تشعر بالراحة النسبية والانفراج المادي، فقد اشترى والدها خضر البقرة من أجرة عملها واستطاعت الأم بحسن إدارتها أن تجعل هذه البقرة مصدر دخل لا بأس به للعائلة، وقد ولدت البقرة لعامين متتاليين عجلاً في كل مرة باع خضر كل واحد منها بمبلغ يكفي مصروف العائلة لعدة أشهر، وكذلك كان حليب البقرة يشكل مبلغاً لا بأس به من المال.. كانت الأرض المجاورة وبئر الماء تزرع بالبرسيم بما يكفي طعام البقرة.. كما أن الدجاج والبيض كان دخلاً إضافياً في حين كانت العائلة تكفي نفسها من الزبدة واللبن والجبن والخضار التي تزرع في الأرض..

وانخرطت وسيلة بالعمل مع أمها.. وفكر الوالد بشراء بقرة أخرى ولكنه اصطدم بعقبة المكان الذي سيتم بناؤه لها.. كانت الزوجة تشجعه.. وهكذا بدأ أمل جديد بحياة أفضل يلوح بالأفق يضعه زوجان متحابّان متعاونان وأولاد يصنعون السعادة لهما.

كانت الدعوى التي أقامتها فاتن الجلفي على وسيلة ووالدها تؤرق العائلة، يعدّون الأيام لها، ويأملون أن تنزاح عنهم هذه الكارثة، كانت ثقتهم بالعدالة كبيرة وثقتهم بالبراءة أكبر..

كانت المدة التي قضتها وسيلة في سجن التوقيف كمتهمة تشكل جرحاً لوالدها ولأهل القرية ولها، ولقد عاشت فترة في السجن بين سجينات، لكل منهن قصة جعلت منهن مجرمات، وأدركت أنها في لحظةٍ شعرت بالاستعداد لقتل زياد وعدم تمكينه من اغتصابها.

يوم المحاكمة كان أشبه بالمظاهرة، فقد ذهب وفد من شباب القرية لحضورها بما في ذلك الأستاذ عزمي منصور الذي جنّد الصحافة والإعلام للوقوف مع وسيلة، كما استخدمت فاتن الجلفي وزوجها كل الامكانيات المادية والمعنوية لوضع وسيلة ووالدها في السجن تغذيها شهوة الانتقام لديها.

كانت المحاكمة أشبه بمبارزة بين فارسين، أحدهما صاحب قضية مؤمن بقضيته وعدالتها، وبين آخر يعرف أن رصيده هو المال الذي يحصل عليه من موكل يملك النفوذ والثروة ولكنه في قرارة نفسه يعرف أنه يدافع عن باطل وعن موقف ضعيف.

كانت المرافعة التي قدمها الأستاذ أحمد المحمود نقيب المحامين السابق، قطعة جميلة من أدب اللغة وفقه القانون، لم يمنع الجمهور الذي حضر المحاكمة من التصفيق له بالرغم من مناشدة القاضي بالصمت واحترام القاعة وعدم الانسياق وراء العواطف.

أما المحامي الآخر، فقد كان موقفه ضعيفاً يحاول تعطيل الجلسات بالإجراءات التي رد عليها القاضي ونبهه عدة مرات بالدخول في صلب الموضوع..

أعلن القاضي تأجيل البت في الحكم ورفع القضية للتدقيق بعد أن استنفد الطرفان كل الأوراق والحجج المقدمة.. وانصرف المتخاصمان والجمهور، وكلٌّ يعلق أملاً على حسن مرافعة محاميه..

خرجت وسيلة ووالدها ومحاميها وسط الجماهير المؤيدة لهما في موكب حتى نهاية شارع المحكمة حيث دخلا في سيارة أجرة عائدين إلى كراج القرية..

عمار محمود كان أكثر الناس اهتماماً بالموضوع، فلم يستطع البقاء في المنزل مساء ذلك اليوم وجاء بدون موعد يزور خضر وسوف في منزله، وخاصة أنه حضر جلسة المحاكمة مع عزمي منصور وشباب القرية، كان استقبال خضر وسوف له مريحاً، ولكن الأكثر فرحاً كانت وسيلة فقد أصبحت تدرك يوماً بعد يوم أن هذا الشاب يحبها بإخلاص فبدأ قلبها ينفتح للحب تفتح الزهر في الربيع، كانت نظراتها، ابتسامتها عرضها لقوامها الذي ينثني برقة كالنسيم العليل، كان تعرف بعفوية قيمة جمال الأنثى وتأثيره على الرجل فكيف إذا كانت أمام الحبيب الذي تتبادل معه النظرات العاشقة..

استعرض عمار مع خضر ما دار من أحداث في ذلك اليوم، ثم أثنى على الدفاع الذي قدمه المحامي الرائع أحمد المحمود، وذكر الجهود التي بذلها الأستاذ عزمي في تعبئة الرأي العام ودور شباب القرية بالتضامن معه، فشكل ارتياحاً لدى خضر وزهواً لدى وسيلة، أما زوجة خضر فقد أعدت الشاي والتمر.. وجلست تراقب وتسمع مثل مراقب الحدائق في البلدية يرى ويسمع ولا يتدخل إلا إذا أقدم أحد على إتلاف الزهور أو كراسي الحديقة.

وما إن انصرف عمار حتى أطلقت تنهيدةً طويلةً لفتت نظر زوجها فخاطبها قائلاً:

ما لك يا غنيمة تتنهدين الهمَّ كمن يشرب الشاي؟

- تعودت على الهمّ وصار جزءاً من حياتي اليومية.

- توكلي على الله يا امرأة.. الحمد لله أمورنا تتحسن يوماً بعد يوم.

- ستبقى وسيلة همي الأكبر يا خضر.. أدعو الله أن يرسل ابن الحلال ويسترها.

- وسيلة جميلة وأخلاقها عالية.. يكفي أنك أمها..

- آه يا خضر.. الناس لا ترحم.. وصمة عار لحقت بنا من الساعة التي أرسلناها لتخدم في بيوت الناس.. وقصتها صارت حديث القرية، وكل ما شاهدتني امرأة تقول لي: إن شاء الله لم تتأثر بكارتها. هل مازالت عذراء؟! وأطرق وجهي بالأرض وأرفعه بقوة مصطنعة، الحمد لله ابنتي عذراء.. وهي من أشرف البنات، حتى أني فكرت باستدعاء الداية أم صالح للتأكد من عذريتها بالكشف عن بكارتها حتى تسكت ألسنة الناس.

- غنيمة أنت مجنونة، لقد أكد الطبيب الشرعي ذلك بتقرير مثبت في أوراق المحكمة، ارفعي رأسك بابنتك - المثل يقول الغارة ليست عارة - المهم صمود البنت وحفاظها على شرفها وتفضيلها الموت على العار.. هكذا نحن تربينا يا غنيمة.. أرجوك لا تظهري الضعف أو الانكسار خاصة أمام وسيلة.. الدكتور محسن درويش قال لي ذلك والأستاذ عزمي منصور شرح

لي كيفية التعامل مع وسيلة ومع المجتمع.. وهذا الشاب عمار محمود ينقل لي الأخبار والرسائل منهما..

- اللهم اجعله خيراً يا خضر - هل تريد مني شيئاً.. إنني سأذهب إلى النوم.؟! وأنا كذلك يا غنيمة ربنا يبارك فيك وبأولادك.

وأقول لكِ شيئاً:

- خير إن شاء الله

- قال عمار أن الأستاذ عزمي سيرسل لها الكتب لتعليمها القراءة والكتابة وستأتي آنسة من القرية لإعطائها الدروس، والأجرة ستدفعها جمعية النهضة التعاونية وسيحدثون فصلاً لتعليم البنات القراءة والكتابة وستكون وسيلة الأولى على الجميع.. ثم قالت الزوجة: الله يوفقها وسأقوم بكل ما يساعدها على النجاح..

عاد عزمي حزيناً متعباً إلى منزله، لم يخرج إلى شرفة البيت كما كان يفعل في مثل هذه الحالات ليحاور البحر هذا الصديق الذي تعود عزمي عليه منذ عاد إلى أرض الوطن، ولكنه وقف في الصالون يتأمل صورة والده الذي كان يمطره بوابل من كلام حول الأهل والوطن والأرض والعشق والبحر، وكان يتذكره عندما كان الدمع يشرق بعينيه وهو يتحدث عن أخته دريّة التي ماتت دون أن يراها وعن أمه التي ماتت وهو في السابعة من عمره.. كان يستيقظ داخل عزمي وهو يتذكر والده مونولوج داخلي يهيج بداخله الذكريات، كان عزمي صبوراً جلوداً متفائلاً، ولكنه هذه المرة وجد نفسه حزيناً منكسراً متألماً وشعر بدموعه تنسال على خديه تكوي وجهه فانصرف إلى المرآة يمسحها بعد أن شاهد نفسه لأول مرة منذ سنين طويلة في مثل هذه الحالة من الضعف والانكسار ذهب عزمي بذاكرته إلى ألمانيا حيث نشأ مع والده المغترب في مجتمع بعيد عن وطنه وعن تقاليده، مجتمع لا يعرف إلا العمل يستنزف به الإنسان وطاقاته ويتعامل معه وفق معطيات الربح أو الخسارة، ومع قساوة الغربة وظروف العمل كان عزمي يشعر أن هذا المجتمع يميز

بين المجتهد والكسول ويعطي الإنسان حرية التصرف وحق الاختيار، ومن هذا المنطلق وجد عزمي نفسه مطلوباً للعمل في الجامعات الألمانية بعلمه وشهادته التخصصية العليا في علم النفس، ولكنه رفض وفضّل العودة إلى الوطن تحقيقاً لرغبة والده المهاجر المغترب الذي كان كثيراً ما يوصيه بالعودة إلى الوطن وكم تمنى الوالد أن يعود قبل وفاته ويموت في تراب الوطن، ولكنه رحل دون أن تتحقق أمنيته، وتذكر عزمي كيف دفن والده في مقابر المسلمين المغتربين في ألمانيا..

كان انكسار عزمي وحزنه يعود إلى شعوره بأن الوطن يظلم أبناءه، فهو لم يقم بالعمل في التعليم وفي الحقل الاجتماعي والثقافي إلا من أجل إنهاض الوطن، وشعوره بأن ما يناقشه الأعضاء في الجمعية الثقافية وفي منتدياتها يزعج السلطة، وقد أزعجه كثيراً ما يقوم به بعض المتضررين من هذا النشاط من الفاسدين وبعض رجال الدين بإخبار السلطة بخطر نشاطهم على النظام السياسي وعلى القيم الاجتماعية وأنه يعرض الأمن الاجتماعي والسياسي للخطر، وتساءل عزمي ما علاقة دعوتهم برفض الشعوذة وقصص الجن ومحاربة الأوهام بالخطر على الأمن والقيم الاجتماعية؟

لقد تمّ استدعاء عزمي أكثر من مرة للتحقيق معه من قبل سلطات الأمن وخاصة بعد وقوف الشباب والمحامي أحمد المحمود وغيره من المحامين الشرفاء مع الفتاة المظلومة وسيلة وسّوف ووالدها، واستطاعت فاتن الجلفي وزوجها المدير العام سعيد الفقش وأنصارهما من إقناع السلطات بتفتيش مقر الجمعية وفحص مستنداتها ومحتوياتها وثم تفتيش عيادة الدكتور محسن درويش ومنزل عزمي منصور واستدعاء عدد من الشباب للتحقيق معهم، بل إن البعض منهم تعرّض للإهانة المتعمّدة.

لم يفرغ عزمي من هذا المونولوج الداخلي في نفسه، حتى اعترضته أفكار وتداعيات عدّة تبلورت في اختيارين كلاهما صعب على الإنسان، فكيف إذا كانت النفس الكبيرة المفعمة بالإيمان الوطني مثل عزمي منصور؟

كان أمامه أن يتخذ قراراً بالعودة إلى ألمانيا والعمل في جامعاتها ومراكز الأبحاث فيها والهجرة مثل والده الذي هرب من الظلم ومات غريباً في بلد الغربة، أو يبقى في الوطن ويكمل رسالته ويموت في وطنه بين أهله في هذا التراب الغالي، ولن يخذل الوطن أبناءه الأحباء، فالوطن هو الأم والأب هو الحبيبة والأمل، هو الأبناء والمستقبل، هو التاريخ والحضارة، هو الفكرة وانتصارها وهو السمو والقداسة والخلود، حيث لا خلود إلا لله العلي القدير وللوطن والشعب الذي يضحي من أجله، لقد اختار عزمي الخيار الثاني هو الخيار الصعب ولكنه الخيار الذي ينسجم مع ضميره وقناعته الفكرية. لم يستيقظ عزمي من الغوص في هذه الأفكار إلا على صوت قرع للباب، وخرج لمعرفة قارع الباب، فوجد أبو اصطيف وعلى وجهه علائم القلق والخوف، وبعد أن سأله الأستاذ عزمي ما الخبر يا أبو اصطيف؟

تنهد أبو اصطيف تنهيدة طويلة وقال:

جئت أخبرك بأن اعتقالات تتم في المدينة لشباب الجمعية، وقد علمت أن الدكتور محسن درويش من بينهم، ولم أستطع التأكد من ذلك، وجئت أخبرك لتدارك الموضوع والسؤال عن الدكتور محسن وخفت أيضاً أن تكون أنت من بين المعتقلين.

استمع عزمي لـــ (أبو اصطيف) بين الشك واليقين، وتساءل عن سبب مجيء هذا الرجل في مثل هذا الوقت، وهل هي رسالة سربها رجال الأمن لتخويفنا أو بعض الجماعات التي لا ترتاح إلى نشاطنا الاجتماعي والثقافي؟ وهل أبو اصطيف هذا من المخبرين السريين لأحد الأجهزة الأمنية يحمل رسائلها ويرفع لها تقاريره؟

ذهب عزمي إلى الهاتف وأجرى اتصالاً هاتفياً مع الدكتور محسن درويش وكان الأخير على رأس عمله، لم يخبره بما نقله أبو اصطيف فالخطوط مراقبة، ولكنه ذكّره بموعد اجتماعهم القادم وأين سيتم اللقاء. ثم أقفل الخط وعاد إلى (أبو اصطيف).

نهض أبو اصطيف.. قائلاً: خير إن شاء الله؟!

قال عزمي خير يا (أبو اصطيف) هذه مجرد إشاعة والدكتور محسن على رأس عمله، تظاهر أبو اصطيف بالفرح وقال الحمد لله طمأنتي. لعنة الله على هؤلاء الذين يطلقون الشائعات ولا يتركون الناس من شرهم.

شكر عزمي (أبو اصطيف)، ولكن (أبو اصطيف) كان حقيبة من المعلومات، ولم يكن عزمي في حالة نفسية تؤهله لسماع هذه الترهات وخاصة أن مزاجه النفسي كان معكراً..

فطلب من (أبو اصطيف) المعذرة، لأنه سيقوم بإجراء حمام ساخن، ثم يجهز نفسه إلى السفر خارج المدينة إلى قرية بعيدة في المحافظة. فودع ضيفه وعاد إلى التفكير بالبرنامج الأسبوعي الذي وضعه لنفسه.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٢١)

الموت أقوى من كل شيء، وأهل الريف يموتون كما يموت الناس في كل مكان.. ولكن فضاء الموت في الريف أكثر رحابة واتساعاً، الولد عندما يولد في الريف تذهب أمه للشيخ تستشيره في تسمية ولدها إن كان ذكراً أو أنثى، وأحياناً يقوم الزوج بهذه المهمة، يستقبل الشيخ الزائر ويسأله عن ساعة الميلاد وتاريخه ويسأله عن اسم والدته وينخرط الشيخ في حساب البرج الذي ينتمي إليه من خلال حركة الأفلاك ووضع الكواكب وطالع النجوم، ثم يشرح لولي الأمر مستقبل الولد وحظه في الحياة والأمراض والأزمات التي يتعرض لها الوليد القادم، ثم يعرض عليه مجموعة من الأسماء التي يقترحها ليختار منها.. ولا ينسى الشيخ تأثير الجن على الإنسان وخاصة الجن الكافر عدو الله، فيخرج ورقة وقلماً ويكتب حجاباً يضعه مع إبرة ودبابيس لكي تغرز بعين الشيطان وعيون الحاسدين، يضع ذلك في زجاجة صغيرة يغلقها بشكل محكم بالشمع ويطلب من الزائر وضعها في شق من الجدار الخارجي لأحد الأولياء بعيداً عن أيدي المتطفلين..

أما الموت، فله طقوسه الإيمانية، إنه رحمة للناس، وإنه اختيار من الله لعبده وانتقاله إلى جواره وإنه راحة من عذاب الدنيا وعلى المؤمن أن ينظر إليه بالرضا والارتياح.. ويروي الأهالي حكايات عن أناس فقدوا فلذة أكبادهم في عز الشباب، وكانوا صابرين يبتسمون، ويروون عن الشيخ البهلول كيف كان يبتسم عند فقد ثلاثة أولاد شباب في حادث سيارة وبقي مبتسماً صابراً يردد إن الله أعطى والله أخذ..

عجيب أمر هؤلاء الناس وقدرتهم على اختزان الألم وإخفاء الحزن، وعجيب انخراطهم في الأحلام والأساطير، إنهم يتعاملون مع الموتى كأنهم

مازالوا يعيشون بينهم ويتبادلون الحكايات عنهم، هذا يروي أن والده زاره في المنام وطلب منه أن يزرع زيتوناً في المكان الفلاني، وهذا طلبت والدته أن يجعل قسماً من أشجاره موقوفاً للفقراء في القرية.. ويذهب الناس للتنفيذ كأن الأمر قد صدر من محكمة بقرار غير قابل للطعن..

علي أبو خليل فقد زوجته منصورة، وعند وفاتها كان يقول لقد انتصرت منصورة عليَّ وماتت قبلي.. الله يرحمها فازت بلقاء ربها.. وأنا مازلت أتعذب.. وبروحه المرحة وأسلوبه الساخر.. كان يقول:

كلما ذهبت لزيارة قبرها أسمع أصواتاً كأنها الأنين في المقبرة، الشيخ يقول لي أنت تسمع صوت الجن لأنك تزورها في الغروب وهذا موعد عودة الجن إلى مساكنهم.. ثم يطلق ضحكة عالية ويقول:

الجن يسكن مع الموتى.. لماذا لا يسكن في القصور مع الأغنياء.. «شو ها المسخرة» هذه الأصوات هي أصوات الفقراء الميتين.. يئنون في الحياة، ويئنون في الممات.. ويتدخل أحد الحاضرين قائلاً:

متى تموت يا أبا خليل؟..

ويرد عليه.. سأموت أنا وأمك في يوم واحد.. لأنها لا تطيق الحياة بعدي ولا أطيق الحياة بعدها.. لا تخف سأصطحبها معي..

ويضحك الحاضرون..

عجيبة حياتهم.. إنهم توحدوا مع الطبيعة.. فتعاملوا معها بحنان وأعطوها الحرية أن تفعل بهم ما تشاء، وحتى في أعمالهم وأفعالهم.. يقولون نحن نعمل.. والله يفعل.. وهم كما هم في الحياة متعاونون كذلك هم في الموت.. الجميع يفتح أبوابه للتعزية والجميع يشارك في إعداد الطعام.. والجميع يشارك في الاستقبال، الحياة وحدتهم فيما بينهم وكما هم في فرحهم الجماعي هم في حزنهم الجماعي..

الأستاذ عزمي منصور كان مغرماً بالدراسات الاجتماعية وعلاقة سلوك الجماعات بالموروث التاريخي والديني.. وعقائد الشعوب وتقاليدها

ونظرتها للحياة وللموت..وكثيراً ما توصل إلى نشرها في أبحاث ومجلات.. وكان حريصاً على توظيف نتائج هذه الدراسات في توعية الشعب وجعله قابلاً للانخراط في العمل الجماعي والتنظيمات الاجتماعية وهكذا انتشر الوعي بالانتساب إلى جمعية النهضة التعاونية، وقام الشباب في قرية المرج والقرى المجاورة في الانتساب إليها حتى أصبحت تضم مئات الأعضاء.

وعندما تمّ إشهار الجمعية لدى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل واكتسبت الصفة القانونية وبعد أن تمّ انتخاب الأستاذ عزمي منصور رئيساً لها وتشكّل مجلس إدارتها.. أراد الأعضاء أن يقيم بهذه المناسبة برنامجاً احتفالياً.. وكلف الدكتور محسن درويش أن يتحدث للجمهور بمحاضرة عنوانها « أثر هجرة الريف إلى المدينة وتحسين الحياة في الريف لوقف الهجرة» في الوقت الذي كانت القرية تستعد لإقامة مهرجانها الاحتفالي بإشهار جمعية النهضة التعاونية حدث في القرية شيء غير متوقع سرى كالنار في الهشيم وجعل عائلتين في القرية يتأهبان لقتال تزهق به الأرواح دفاعاً عن العرض والشرف.. لم ينفع تدخل الأهالي ولا الوجهاء، الأمر الذي جعل القرية تنسى الاحتفال بالجمعية وتراه أمراً ثانوياً، وقرّر القائمون على الاحتفال تأجيله لموعد آخر.. القضية كانت قصة عشق بين الشاب عمران الأكحل وبين الفتاة نظيرة النعسان، كان حباً عنيفاً يعرفه أهل القرية، ولكن آل النعسان لخلافات عائلية رفضوا تزويج ابنتهم لآل الأكحل.. وكان على نظيرة وعمران أن ينتظرا حتى يأتي الزمن بحل.. كانا يلتقيان سراً.. وكثيراً ما سرّب الوشاة أخبارهما وحاول أهل الفتاة تهديد ابنتهم بالقتل إذا ما شعروا بأن شيئاً تقوم به يسيء إلى شرف العائلة كما هدد إخوة نظيرة عمراناً بالقتل إذا لم يذهب من طريقها..

وحدث أن جاء أحدهم وأخبر أهل النعسان أن ابنتهم ليست عذراء وأن عمران قد تزوجها بالسر فخافوا على أنفسهم من الفضيحة..وخططوا لقتل عمران.. إلا أن عمران قد هرب من القرية فاضطر أهله إلى الذهاب إلى الشرطة وإعلامهم بالتهديد فجاء رجال الشرطة وأخذوا تعهداً من آل النعسان

بعدم التعرض له فزاد الطين بلّة واشتد التوتر بين العائلتين واقترح المختار وبعض الوجهاء أن يأخذوا عمراناً إلى مقام الشيخ يوسف الغريب، ذلك الولي الذي لا يعرف من أين جاء ولكنه يُروى عنه جيلاً بعد جيل أنه كان صاحب أسرار وعلامات من علامات الأولياء الصالحين، ويروي الأهالي عنه أنه إذا جاء إليه من يحلف كاذباً بالله والولي الشيخ يوسف الغريب، فإن العقاب يأتيه بشكل عاجل في جسده أو في أبنائه.. ويروى أن امرأة سرقت البيض من خم جارتها، وأقسمت كاذبة بالله والولي. وما هي أيام حتى ظهر البيض في جسدها على شكل دمامل بحجم البيض حتى أودى الورم بحياتها.. وهكذا أقسم عمران أنه لم يواقع نظيرة في حياته ولم يرغب في الزواج منها إلا بعقد شرعي.. ولكن ذلك لم يقنع آل النعسان.. وهددوا نظيرة بالقتل وغسل العار عنهم وأقسمت لهم بالله والولي يوسف الغريب..أنها بريئة ولكن التهديد ظل قائماً..

كان القمر بدراً والسماء صافية من الغيوم.. النسيم يحرك أعالي الأشجار فتميل برؤوسها وتتلاعب أغصانها انخفاضاً وارتفاعاً كالأيدي التي تلوح بالوداع عند السفر.. خرجت نظيرة من النوم إلى الدار الخارجي طافت بأرجائه.. تأملت الزهور التي زرعتها، الأشجار التي سقتها، ألقت بنظرها نحو غابات الصنوبر المحيطة بالقرية، نظرت إلى البدر في السماء، تذكرت وجه عمران حبيبها الذي عاهدته على الحب وعاهدها على الإخلاص لها.. أرسلت دموعها التي تدفقت بغزارة مسحتها عدة مرات.. تذكرت تهديدها بالقتل لغسل العار، صممت أن لا تجعل إخوتها يتورطون في قتلها وتحمل هذا الإثم.. أرادت أن تضع حدّاً لحياتها..

نظرت إلى نفسها، إنها تلبس ثوب النوم الرقيق، وكثيراً ما حلمت أن تلبسه في غرفة النوم لعمران عندما يتزوجان.. كان ثوباً أزرق يرمز للأمل.. ولكن كثيراً ما يغرق الأمل في بحر التخلف والتحجر العقلي والعادات السخيفة، كان جسدها يثير الفتنة.. تقدمت بضع خطوات نحو البئر في منتصف الدار رفعت الغطاء المعدني عنه.. ثم نظرت مرة أخرى إلى البدر

في منتصف السماء، تخيلت أن البدر يشاركها الحزن، بل والدموع.. غريب أمر الإنسان الذي يقرأ في عينيه في صفحات الأشياء ما يوحي به القلب والعقل في آن واحد.. تذكرت عمران.. وبألم استعادت تهديدها بالقتل ورمت نفسها في البئر واضعة حداً لحياتها التي أثقلتها المآسي والهموم.

كان الجميع يغطّون في نومٍ عميق.. كان الفجر قد بدأ يخط خطوطه والليل يسحب أسماله المقطعة خلف القمم وفي الوديان.. استيقظت الأم فلم تر نظيرة بجانبها.. خرجت إلى الدار لم تجدها صرخت بأعلى صوتها نظيرة.. نظيرة.. استفاق الأب والأخوة، ظنّ الجميع أنها هربت تلك الليلة مع عمران.. امتشقوا السلاح والسكاكين.. وهموا في الخروج للهجوم على آل الأكحل.. جاء صوت الأم نظيرة.. لم تخرج من المنزل ثيابها موجودة.. حذاؤها موجود فتشوا عليها في الدار أو على السطوح..

نظر والدها إلى البئر فوجد الغطاء مزاحاً عنه.. صرخ بأعلى صوته من أزاح الغطاء عن البئر؟.. توجه الجميع نحوه.. وكانت المفاجأة.. نظيرة ميتة وقد طفت جثتها على الماء..

صرخ أخوها.. هاهي ميتة.. تعالوا لنخرجها من البئر..

طلب الأب إخبار الشرطة والمختار.. سرت الأخبار في القرية.. تجمع الناس حول منزل النعسان..

جاء الطبيب الشرعي وقاضي التحقيق وضابط الشرطة مع عناصره.. انتشلوا الجثة.. وقرّر الطبيب أن الموت نتج عن الغرق.. لا توجد كدمات أو آثار عنف مما يرجح الانتحار، الفتاة عذراء.. ويصرح بدفنها..

خرجت القرية في جنازة نظيرة.. وكأنها عروس تزف.. بكى عليها الجميع.. غنى لها الصبايا أغاني الوداع الحزينة ــ أبطل الأهالي تشغيل أجهزة الراديو والتلفزيون لعدة أيام.. كان صوت القرآن الكريم ينطلق من كل بيت.. في حين كان يدور الحديث همساً لقد تسبب أهلها في قتلها.. قاتلهم الله..

قال البعض من يدري؟ قد يكون أحد أخوتها قد رماها في البئر أو أجبرها على رمي نفسها.. علي أبو خليل تجرأ للقول على المقبرة.. الله يرحمك يا نظيرة قتلوك بالكلام وأنت البريئة يا مظلومة، سيموت ألف مرة في الحياة من كان السبب اللهم العن الظالمين وارحم عبادك الشرفاء المظلومين.. ويردد الجميع خلفه.. آمين.

بعض الأهالي كان يقول الله يرحمها.. عظم الله أجر الجميع دون أن يمر على أهلها أو يصافحهم لشدة احتقاره لهم.

ماتت نظيرة بريئة شهيدة العقلية المتحجرة.. لكنها بقيت رمز للبراءة والحب محفوظاً في ضمير شباب القرية وشاباتها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٢٢)

عمار محمود انتحى جانباً أثناء الجنازة، كان يبكي بصوت مسموع كأن نظيرة المتوفاة أخته، ولكنه في الحقيقة كان يبكي ما تراكم في نفسه من حب غزالة المكبوت والذي قاده إلى الجنون دون أن يتجرأ على مصارحتها أو على الحديث عنها لوالده أو والدته، وهاهو مرة أخرى يحب وسيلة وسّوف ابنة عم غزالة، ماذا لو تعمق هذا الحب في نفسه وبادلته وسيلة نفس المشاعر ثم اصطدم هذا الحب بالرفض على الأقل من والده الذي يعتبر خضر وسوف وعائلته أدنى مرتبة ومكانة اجتماعية من عائلته وكذلك الشعور الذي يخلفه في نفوسهم تاريخ فتاة كانت خادمة وتعرضت لمحاولة اغتصاب فاشلة..

كان عمار يبكي نفسه ويبكي حبيبته، وفي المجتمعات الريفية لا توجد أشياء في الوسط، ولا أحد يمنح الآخر فرصة نسيان الأخطاء ولا توجد مساحة للغفران، فالفتاة التي تفسخ خطوبتها تصبح فتاة غير مرغوبة إلا في حالات نادرة وكذلك المطلقة، ربما الأرملة تكون في وضع أفضل، فالموت هذا القدر الجبار قد أخذ زوجها أما هي فتبقى في دائرة الشرف والطهارة، أما غير ذلك فهناك عيب ما، لا يجوز التغاضي عنه..

كان عمار محمود على موعد مع الأستاذ عزمي منصور لتنظيم حفل الاحتفال بتأسيس جمعية النهضة التعاونية، فحرص عمار أن يسبق بقية الأعضاء إلى منزل الأستاذ عزمي ليتحدثا معاً في قضايا خاصة، وما إن وصل إلى المنزل حتى ابتدأ الحديث الأستاذ عزمي قائلاً:

ــ مالي أراك متعباً.. تبدو عليك علامات الإجهاد.. هل حصل لك شيء؟

ــ والله يا أستاذ لم أنم الليلة الماضية قضيتها مسهداً.. وفي الوقت القليل الذي نمت فيه وجدت أحلاماً مرعبة.

ــ أحلام مرعبة؟ بماذا تفكر يا عمار؟

ــ لم تغادر نظيرة النعسان مخيلتي.. شعرت بالحزن العميق على انتحارها.. لقد ماتت مظلومة.

ــ نظيرة ــ سمعت قصتها.. فعلاً إنها مظلومة.. ولكن هل حصل شيء جديد؟

ــ لم يحصل.. القرية كلها حزينة، أهلها مازالوا يعيشون الصدمة، وأهل حبيبها عمران الأكحل مازالوا خائفين من ردود أفعال أهلها.. ومازال عمران مجهول الإقامة خوفاً على حياته مع أنني سمعت أنه يعيش حالة سيئة، وأنه يخشى أن يقوم بعملية طائشة ضدّ أهلها انتقاماً لحبيبته.

ــ الخطأ لا يعالج بالخطأ يا عمار.. يجب أن يحكّم العقل في مثل هذه الحالة.

ــ أنا من رأيك يا أستاذ.. ولكن ما العمل؟! أنا أخاف إذا أقدم أحد الطرفين على خطأ ما ستدخل العائلتان في عملية ثأر متبادل وسوف يؤثر ذلك على عملنا في الجمعية وعلى جو الألفة الذي نحاول أن يسود بين المواطنين.

ــ أنت على حق يا عمار.. سنبحث إيجاد حل وسنحاول إصلاح الحال بين العائلتين.. وسأناقش الموضوع مع الدكتور محسن درويش..

ــ أرجو أن يكون ذلك سريعاً.

ــ ما رأيك أن تقوم بدعوة آل النعسان وآل الأكحل إلى حضور الاحتفال بعد التمهيد لذلك ونعتبر أن احتفالنا في الجمعية لا ينسينا الاحتفال بتأبين نظيرة في ذكرى الأربعين على موتها.

ــ والله فكرة يا أستاذ..

ــ سأقوم بزيارة الدكتور محسن درويش.. لمناقشة تنظيم الوقت.. وسأعلم أعضاء مجلس الجمعية بما نتفق عليه.

قُرع منزل الأستاذ عزمي من الخارج.. ذهب ليرى من في الباب، وصل بقية أعضاء مجلس جمعية النهضة، رحب بهم الأستاذ عزمي وقبل أن يأخذوا أماكنهم على المقاعد قال الأستاذ عزمي..

طلبت من عمار أن يأتي مبكراً ليجلس معكم ريثما أعود من زيارة قصيرة للدكتور محسن درويش، لن أغيب أكثر من ساعة مع مهلة الطريق.

حسناً.. قال عمار.. سنبقى هنا ريثما تعود.. طلب الأستاذ عزمي القهوة لهم وانصرف إلى عيادة الدكتور محسن درويش بعد أن اتصل هاتفياً يخبره بالمجيء.

لم يعلم الدكتور محسن بسبب زيارة عزمي الطارئة له، كان يعرف أنه سيذهب معه إلى قرية المرج ليلقي محاضرته حول الآثار النفسية والاجتماعية للهجرة من الريف إلى المدينة، ولكن الأستاذ عزمي فاجأه بقصة حب نظيرة وموتها منتحرة بعد أن ظنّ أهلها أنها تقيم علاقة غير شرعية مع أحد شباب القرية وخافت من قتلها بداعي الشرف، ولكنها سبقتهم إلى ذلك. وتبين بعدها أنها عذراء، وأن هذه التهمة كانت باطلة من الأساس.

تأثر الدكتور محسن درويش تأثر بالغاً، وقال لزميله عزمي متى سنتحرر من هذه العادات القديمة السيئة والنظرة المتخلفة للمرأة وحرمانها من حقوقها الأساسية؟!.

أجابه الأستاذ عزمي، هذا وضع صعب، أخذنا على عاتقنا كمثقفين أن نتصدى للإصلاح في المجتمع والطريق إلى ذلك طويل، لا بدّ من إصلاح الفكر في الأسرة والمدرسة والجامعة وكذلك لا بد من إصلاح القوانين البالية.

أنا جئت أقترح عليك في يوم الاحتفال تأسيس الجمعية أن نخصص نصف ساعة فقط لتأبين نظيرة الفتاة المظلومة، وأن نجعل جزءاً من حديثنا في نقد هذه العادات بطريقة ملطفة.. وهناك فكرة أخرى أن نقوم معاً بزيارة

لأهلها ونعرض عليهم الصلح بينهم وبين آل الأكحل عائلة الشاب الذي كانت تحبه ويحبها حتى نزيل العداوة من النفوس.. ويمكن أن يساعدنا في ذلك مجلس إدارة الجمعية وهم عندي في المنزل ووجهاء القرية والأهالي..

أيد الدكتور محسن الفكرة واتفقا على التفاصيل، ثم غادر الأستاذ عزمي العيادة عائداً إلى ضيوفه في المنزل.

وضع الدكتور محسن باعتباره طبيباً نفسياً خطة الاتصال مع أهل نظيرة، واتفق مع زميله الأستاذ عزمي أن يذهبا سويَّة إلى القرية في زيارة خاصة قبل الاحتفال، وقبل أن يتدخل أحد من مجلس الجمعية بذلك.. واعتبر الدكتور محسن أن هذا اللقاء يمثل مرحلة الإعداد النفسي وتهيئة الجو لعملية المصالحة، لأن هؤلاء الذين فقدوا ابنتهم قد تكون مشاعرهم الحقيقية كامنة، وهم لا يدرون ماذا يفعلون، إنهم في مرحلة الصدمة، وعندما تتحرك المشاعر الكامنة، لا ندري بأي اتجاه ستكون، ربما بالحقد على ابنتهم حتى في موتها وربما في الحقد على حبيبها الشاب واعتباره سبباً مباشراً يجب أن يموت هو الآخر، وكذلك قد تكون مشاعرهم ضدّ والدهم وضدّ أنفسهم وقد يخلقون واحداً منهم يحملونه المسؤولية المباشرة عن موت شقيقتهم.

لم يرغب الأستاذ عزمي بوضع أعضاء مجلس الجمعية بكل التفاصيل التي دارت مع الدكتور محسن حرصاً على سريتها وخصوصيتها، اتفق مع الحاضرين على الموعد بالساعة والتاريخ ومكان الاحتفال وتأمين الكراسي وطباعة المنشورات والدعوات والنظام الداخلي، ووزع المسؤوليات على أعضاء مجلس الإدارة ودون أن يتطرق الموضوع إلى تأبين نظيرة، وعندما سأله عمار محمود عن ذلك.. أجابه هذا موضوع آخر سنبحث فيه عندما يأتي الوقت المناسب.. أجاب الأستاذ عزمي عن أسئلتهم وكلف عمار محمود بالمسؤولية المالية عن صرف النفقات وسلمه شيكاً بالمبلغ المعتمد لإقامة الحفل، كان المبلغ في معظمه مدفوعاً من الأستاذ عزمي للدكتور محسن وبقية المتبرعين.

(٢٣)

ضجت المدينة عندما نشرت جريدة البلاد في صفحتها الأولى عنواناً لافتاً تحت عنوان «فضيحة تهز المدينة» مفادها أن سكرتيرة المدير العام (س. ف) قد ادعت عليه بأن المدير قد تعلق بها وهام بحبها، وأنها حملت منه، وعندما أعلمته بذلك جن جنونه وطلب منها إجهاض الجنين وعرض عليها مبلغاً كبيراً من المال، ولكنها رفضت وطلبت تثبيت زواجها منه وإجباره على الاعتراف بأنها حملت منه سفاحاً..

غير أن المدير العام رفض وأصر على إنكاره وأحيل الملف إلى القضاء.. لم يكن س ف سوى سعيد الفقش زوج فاتن الجلفي.. وهكذا وجدت فاتن نفسها أمام مشكلتين، مشكلة زوجها مع سكرتيرته بهيرة ومشكلة ابنها زياد مع وسيلة. توالت المصائب على رأسها، وقرر التفتيش الإداري كف يد زوجها عن العمل ريثما تنتهي قضيته مع بهيرة، أما موضوع النطق بالحكم في قضية زياد ووسيلة فكانت على موعد قريب منها، ماذا ستفعل وهي محرضة على هتك العرض والاغتصاب في الدعوى، وهي حديث البلد في فضيحة زوجها مع سكرتيرته بهيرة.

بهيرة كانت فتاة سمراء جميلة القوام، ذكية في إثارة من تريد، وقد وجدت ضالتها في مديرها العام الذي كان يحدثها باستمرار عن تسلط زوجته فاتن وانفرادها برأيها وعنجيتها وتكبرها عليه باعتبارها من عائلة ثرية، وأنه محروم من الحنان الزوجي في المنزل ويرى في بهيرة ملاذه الآمن وجنته المريحة، يتمنى أن لا ينتهي يوم العمل كي لا يفارقها وينتظر النهار أن يأتي ليعود في الصباح ليتمتع بوجهها المشرق ورائحتها الرائعة وعطرها الفواح وفنجان القهوة الصباحي وثغرها الباسم وهي تعرض عليه بريده وبرنامجه

الصباحي.. وكثيراً ما غمز الموظفون وتحدثوا عن هذه العلاقة التي انتشرت في الشركة كلها. حتى إنهم كانوا يطلبون من "أبو علي" الحاجب الذي يقف على باب المدير العام أن يتنصت عليهما عند دخول بهيرة إلى الغرفة، ويروون الروايات عن التأوهات والضجات.. وأبو علي بخبث ظاهر كان يقول أنا ما سمعت إلا الذي سمعتموه.

في التحقيق أمام القاضي، كانت بهيرة تلعب الورقة بذكاء وتضع هدفاً هو الأول والأخير في حياتها وأن تكسب اعترافه ببنوّة جنينها وتثبيت زواجه عليها، وهي واثقة من الوصول إلى ذلك لأنها لا تعرف رجلاً آخر غيره وهو الذي ضاجعها ومارس الجنس معها والجنين الذي في أحشائها من صلبه، ومن أجل هذا وقفت أمام القاضي بكل ثقة وصراحة وفي مواجهة سعيد الفقش بقولها: كان يتودّد لي يومياً ويشرح لي معاناته المنزلية، كان يكبرني بأكثر من عشرين عاماً ولكنه كان يملك إلحاح مراهق وشهوانية عاشق محروم، وأغرقني بالهدايا، كان يقبل يدي وركبتي.. ويمسح وجهه بصدري ويقسم الإيمان بأنه سيعقد عليّ بزواج شرعي.. وعندما سلمته نفسي.. اشتد هيامه بي كان لا يرتوي مني، ضاجعني في المكتب على الأريكة وفي السيارة، وفي شقة استأجرها لكي نلتقي مع بعض.. لدي شواهد على ذلك، أعرف خارطة جسده بكل تفاصيلها، كان يقبّل جسدي من قدمي وحتى رأسي ــ ثم التفت إلى سعيد قائلة أتنكر ذلك؟

وجه القاضي السؤال إليه قائلاً:

ما رأيك في أقوال بهيرة فأجاب:

إنها رواية تؤلفها يا سيدي القاضي وهي مؤلفة بارعة..

صرخت بهيرة اخرس يا كذاب، ثم التفتت إلى القاضي قائلة:

دعه ينزع ثيابه.. انظر للشامة السوداء في أعلى فخذه انظر ظهره من الخلف يوجد به آثار لقطب جرح قديم.. أتابع كلامي أو تسكت..؟!..

سيدي القاضي.. أرجو أن تطلب الشيكات التي وقّعها لي لأقبضها من حسابه في البنك وهذا عقد إيجار الشقة التي استأجرها ليمارس الجنس معي فيها.. وأرجو أن تطلب الجيران الذي كان يقول لهم أنا وزوجتي نسافر كثيراً.. ونأتي إلى الشقة عند العودة من السفر.. أرجو أن تطلبهم كشهود..

طلب القاضي منها الجلوس.. وبدأ بالنظر إلى سعيد الفقش الذي اصفر لونه وضاقت عيناه وتسارعت أنفاسه.. ثم قال القاضي:

سيد سعيد أنت متهم وليس لك من أدلة سوى النفي الكلامي، سنقوم بتحويل الأمر إلى الطب الشرعي من أجل معرفة دم الجنين ومدى مطابقة نسيجه لك إذا كان ذلك متوفراً وسنطلب الحماية لبهيرة حتى تضع وليدها وتتابع الموضوع..

أمامك فرصة للاعتراف وتثبيت الزوجية ولاحقاً البنوّة.. وهذه الطريقة تعفيك من المسؤولية بعد التراضي.. أما في حالة الرفض والإصرار فهناك مسؤولية جنائية تتطلب توقيفك على ذمة التحقيق.. وأمر إخلاء السبيل متروك للنيابة العامة وقرارها..

بهيرة بإمكانك الذهاب إلى منزلك، أما أنت يا أستاذ سعيد فموقوف على ذمة التحقيق..

وطلب من الكاتب إغلاق الجلسة.

كانت فاتن الجلفي تدور بين أهلها وبين المحامين، لا تدري كيف تدير أمورها، كانت ترفض أن تأتي لمقابلة زوجها كرهاً واحتقاراً له بعد خيانته لها وانتشار الفضيحة في الصحافة، وكانت حائرة بما ستفعله إذا صدر الحكم لغير صالحها في قضية وسيلة، سيكون زوجها وابنها في السجن، وربما تسجن بسبب الادعاء عليها محرضة لزياد على الاغتصاب الجنسي والإكراه الجسدي وهي أمام أشهر المحامين في المدينة الأستاذ أحمد المحمود، كانت تخلو إلى نفسها وتجهش بالبكاء بالرغم من غرورها وعنادها.. كان موعد الجلسة يقترب يوماً بعد يوم وتشتد عليها الهموم ويسيطر على نفسها القلق.

وكان يؤرقها ما تشعر به بناتها وأزواجهن من عار لحق بسمعتهم من جرّاء حادثة أخيهم زياد.. وها هي الفضيحة الكبرى التي أصبحت حديث المدينة، بعد قصة والدهم مع السكرتيرة.

المحامي نصحها بأن تقابل زوجها على انفراد، ثم تقرر بعد ذلك ماذا تفعل، ووعدها أن يرافقها للاستماع إليه والوكالة عنه، فرضخت للأمر وطلبت مقابلة زوجها في سجن التحقيق.

ارتعد عندما وقع نظره عليها وأجهش بالبكاء وأقسم لها بالبراءة، وطلبت منه أن يقوم بتوكيل المحامي الذي وكلته من أجل زياد.. وانتهت المقابلة رغم قناعتها بأن لا شيء يأتي من العدم ولا نار بلا دخان.

في اليوم التالي أحضر المحامي الكاتب العدلي المختص بتنظيم الوكالات، ثم ذهب إلى المحكمة وقرأ أقوال المدعية بهيرة وأقوال المتهم سعيد الفقش.. ورأى أنه أمام قضية واضحة المعالم وأن قرار القاضي يقرره القول الفصل لدى الطب وأيقن القاضي الحقيقة والثقة التي تتحدث بها بهيرة.

أعلم المحامي فاتن الجلفي بالتفاصيل، فأطلقت تنهيدة عميقة ثم قالت:

هل يمكن التأثير على قرار الأطباء بنسبة الولد له بعد تحليل الأنسجة والدم.

أجابها المحامي هذا مستحيل.. لأن العينة ترسل من دون أسماء وإنما تحمل أرقاماً فقط والقاضي ملزم بالنتيجة..

(٢٤)

وقفت فاتن الجلفي على شرفة منزلها في ساعة متأخرة من الليل وقد عاندها النوم كانت قلقة محطمة حائرة، عادت في أفكارها إلى شبابها وكيف كانت محط أنظار الشباب وخاصة أبناء الأثرياء، وكيف فضلت من بينهم سعيد الفقش كونه كان متعلماً يحمل شهادة الماجستير في الإدارة من بريطانيا، وكيف عشقته وتزوجته ووقفت خلف نجاحه حتى أصبح المدير العام لأكبر شركات المدينة، وتذكرت أنها لم تحرمه من جسدها أعطته ما يروي غريزته الجنسية ولم تحرمه من متعة المضاجعة إطلاقاً.. وكان يروي لها كيف يتعامل الغرب مع الجنس كما يتعامل مع الحاجات الجسدية الأخرى كالطعام والرياضة والذهاب للمسرح والسينما.. واتفق معها على تربية أولادهما على معرفة كل شيء يتعلق بالجسد، وأعطت للبنات حرية الدراسة مع الصبيان في مدرسة واحدة، وشعرت بأنها من حسن الحظ أن البنات تزوجن في سن مبكرة، وحاولت تثقيف زياد ابنها الوحيد جنسياً، ولكن هذه الخادمة العنيدة وسيلة وسوف قد أوقعتها في شر أعمالها وشعرت بالندم في محطات كثيرة من حياتها.

تساءلت فاتن، كيف سيكون الأمر لو هي خانت زوجها وعلم بذلك وعاشت قصة حب خارج الزوجية كما تعيش بعض صديقاتها من الطبقة المخملية اللواتي كن يتحدثن عن مغامراتهن بالفخر والاعتزاز وإرضاء الرغبة الجنسية والبحث عنها في دهاليز العلاقات غير الشرعية، ألا يذهب فوراً لطلاقها؟..

وتساءلت هل تطلب الطلاق وتريح نفسها، وتبحث عن حريتها الشخصية وهي المرأة الثرية التي ورثت عن أهلها العقارات والأراضي

والأموال، كان النعاس قد بدأ يدب في أطرافها والاسترخاء يهيمن على جسدها فدخلت إلى غرفتها واستسلمت للنوم بعد أن قررت مواجهة الصباح التالي في لقاءات مع المحامي وأفراد العائلة.. وحزمت أمرها على اتخاذ القرارات المناسبة وفق المشورة التي يقدمونها لها.

كان موعدها في مكتب المحامي في الساعة العاشرة صباحاً، جاء صهرها الأستاذ الجامعي الدكتور فائق ربيع وزوجته وهي الابنة الكبرى لفاتن، وكان فائق مهندساً معمارياً مرموقاً، ذهب الجميع في سيارة الدكتور فائق.. وفي الموعد المحدد كان الجميع في مكتب المحامي.

كانت فاتن بحاجة لمن يساعدها في اتخاذ القرارات الصعبة وكانت ابنتها الكبرى وزوجها الدكتور فائق يحظيان بثقتها..

عرض المحامي وجهة نظره بعد اطلاعه على ملف الدعوى والأوراق المقدمة فيها ورأى أن بهيرة لديها وثائق لها قيمتها كما أن الدليل الأكبر سيقدمه الطب الشرعي وهنا المشكلة الكبيرة التي لا يملك سعيد أية وسيلة لإنكارها ودحضها، ثم قال لها بجديّة واضحة:

سيدة فاتن، أريد أن أعرض عليك رأياً، أرجو أن لا يشكل لك ضيقاً، وأنا أقدر موقفك ووقع هذا الرأي على سيدة محترمة ومعروفة في المجتمع.

كلي آذان صاغية قالت فاتن..

أقترح عليكم أن نفاوض بهيرة ومعرفة ماذا تريد، إذا كانت تريد تثبيت الزواج من أجل شرعية المولود، نفاوضها على قبول سعيد بالزواج منها ومن ثم بعد الولادة وتسجيل المولود يمكن أن يطلقها وفي هذه الحالة تسقط الدعوى ويخرج الأستاذ سعيد بدون حكم بالسجن..

- صرخت ابنتها قائلة، يكون لنا أخ معترف به من هذه العاهرة التي أوقعت والدي بحبائلها!! طلب الدكتور فائق من زوجته أن تهدأ وتبتعد عن ذكر الألفاظ البذيئة.. ثم وجه سؤالاً للمحامي قائلاً:

في حال رفض الاعتراف بالولد ماذا سيجري في الدعوى؟

أجاب المحامي: الأدلة التي تملكها وهي شيكاتٌ موقعة لها بالسحب من حسابه، واستئجار شقة لها والمساكنة معها بشهادة الجيران والأمر الثالث ذكرها العلامات الفارقة بجسده والتي لا يمكن لإنسانة عادية أن تطلع عليها إلا إذا كانت زوجة أو خليلة.

وأخيراً نتائج التحليل الطبي لدم الطفل وأنسجته التي لا تقبل الشك بنسبه إلى والده الفعلي.

- نعتبرها خليلة يضاجعها بالفلوس كأي عاهرة.. قال الدكتور فائق..

- أجاب المحامي تحليل الدم والأنسجة والجينات، ستعطي إثباتاً قاطعاً، ماذا لو كانت النتائج الطبية إيجابية، وإذا كنتم تريدون ذلك فسيبقى في التوقيف الإجباري حتى يخرج بسند كفالة.. والسؤال كيف ستقبل السيدة فاتن الحياة معه في هذه الفترة.. هل سيخرج من البيت للسكن في بيت مستأجر؟! ماذا ستفعلون أنتم أحرار باتخاذ القرار المناسب طلبت فاتن من المحامي إعطاءها مهلة للتفكير وانصرفت مع صهرها وابنتها عائدين إلى المنزل..

بهيرة التي أوشكت على الولادة، كانت أكثر قلقاً من غيرها، كانت تطلب من محاميها استعجال جلسات المحاكمة والتسريع بإجراء الاختبارات الطبية، بل إن محامي بهيرة اتصل مع محامي سعيد الفقش ودعاه لأن يطلب منه الاعتراف وإجراء عقد الزوجية قبل ولادة بهيرة.. وهذا ما طرحه محاميه مع السيدة فاتن التي لم تتخذ قرارها بعد..

أعلمت بهيرة القاضي بأن موعد ولادتها قد اقترب وطلبت من المحكمة تصريحاً بقبول ذهابها إلى مستشفى الولادة وأنّ لها قضية ادعاء زواج وأبوة على طفلها الوليد لكي يتم اتخاذ الإجراءات القانونية واختيار اسم للمولود وتسجيله في وقوعات الولادة في المستشفى.. وكان محامي بهيرة يلاحق الموضوع باهتمام وحماس. وقبل الولادة بأيام طلب القاضي حضور محاميها إلى المحكمة وإطلاعه على نتائج التحليل الطبي الذي أخذ للجنين بواسطة سحب عينة من دمه إلى خارج الرحم وجاءت النتيجة الطبية الحاسمة بتقرير مثبت أن هذا الجنين قد ثبت بالتحليل الطبي أنه ابن سعيد الفقش.. وخرج

المحامي فرحاً يخبر بهيرة بالموضوع والتي لم تفاجأ به لأنها تعرف بأنه لم يعاشرها جنسياً سوى سعيد الفقش.. ثم قام المحامي بإعلام زميله محامي الفقش حيث قام الآخر بإخبار موكله الموقوف سعيد وكذلك زوجته فاتن.. عقد الخبر لسان سعيد، وبدأ القلق والخوف واضحاً عليه، نصحه المحامي بالاعتراف وعقد زواجه على بهيرة والخروج من السجن بأقل الأضرار، وغادر موكله إلى منزل فاتن الجلفي وأكد على اقتراحه السابق بالاعتراف بالولد والزواج من بهيرة..

لاذت فاتن بالصمت ثم قالت:

أستاذ: تفاهم مع سعيد حول الموضوع وأرجوك أن تبلغه بأنني سأطلب الطلاق غداً من المحكمة لأني لا أستطيع أن أتحمله في بيتي وأتحمل عاره أمام المجتمع.. قل له أن يذهب إلى بهيرة وأن يسترها ويستر ولدها الذي سيأتي للحياة.. وأرجو أن تقدم لي دعوى الطلاق غداً.

حاول تهدئتها ولكنها أصرت على موقفها.. وخرج المحامي يبلغ الفقش زوجها بما قالت له...

أطرق سعيد في الأرض، تذكر عناد زوجته، ورأى أنه لا مناص من الاعتراف بولده القادم وبمعاشرته لبهيرة، ورأى أنه أسهل الأشياء اختيار ما ليس منه بدٌّ وهو الزواج منها.. لأنه يعرف في قرارة نفسه أن زواجه مع فاتن الجلفي لن يستمر.. ولذلك أعطى المحامي التفويض اللازم لإتمام العملية مع بهيرة وفق شروطها.. وطلب منه أن تتساهل بهيرة في موضوع المهر وتعويض الأضرار لأنها ستكون زوجته وذلك من أجل أن تستمر حياتهما ومن أجل وليدهما القادم.

فرضت بهيرة شروطها أمام القاضي وقبل سعيد بها وسجلها زوجةً له، خرج معها من السجن إلى الشقة التي استأجرتها، حيث رفضت فاتن الجلفي استقباله، لقد طلبت فاتن الطلاق ولم يكن أمام سعيد سوى القبول.. وأصبحت كما طلبت حرة طليقة..

(٢٥)

كان موعد جلسة النطق بالحكم في قضية دعوى فاتن الجلفي على وسيلة وسّوف قد اقترب، والمحامي أحمد المحمود كان أعد مرافعته في الموضوع وطلب إدماج الدعوى المقامة من وسيلة على فاتن وابنها زياد مع الدعوى المقامة من فاتن عليها حيث اتهمتها بالسرقة والهرب..

كانت الصدمة التي تعرضت لها فاتن الجلفي من خيانة زوجها لها وغرامه في فضيحة علاقته مع بهيرة وإنجابه ولداً منها خارج نطاق الزوجية ثقيلة جداً ومن ثم طلاقها، وقد جعلها غارقة في همومها وأحزانها ولم تعد تكترث بما سيكون عليه النطق بالحكم في قضية خادمتها وسيلة.. وكانت تخلو إلى نفسها في ساعات متأخرة من الليل بعد أن تصحو من كوابيس وأحلام مرعبة متساءلة مع نفسها هل الرب يعاقبني على الظلم الذي مارسته في حق هذه الفتاة البريئة وهي كالوردة في بداية تفتحها.. وهل زياد ولدي هذا سوى نسخة عن أبيه في طيشه الجنسي وغريزته التي لا ترتوي.. كادت أن تهرب في هذه الدنيا لكي لا يراها أحد، كانت تشعر بالعار والانكسار من أفعالها وأفعال زوجها وسخرية الناس منها وهي التي كانت حديث المجالس والصالونات، وصورها تنشر في المجلات مع أخبارها الاجتماعية بشكل يومي وأسبوعي مع زوجها وشخصيات المجتمع السياسية والاقتصادية، تمنت أن تكون مجرد امرأة من عامة الشعب تعيش حياتها الطبيعية في بيت عادي بعيداً عن صخب وضجيج الحياة المترفة، فكرت في الهجرة خارج البلد.. ولكنها كانت تفكر بمسؤوليتها عن الأملاك والعقارات التي تركها لها والدها عثمان الجلفي.. وقررت مراراً أن تنقل ملكيتها إلى ابنها وبناتها.. ولكن الحذر والشك والعناد في شخصيتها كان يحول دون ذلك. والشيء الذي بات

يؤرقها أن وحيدها زياد الذي كانت تبني عليه الآمال وتصرف عليه الأموال لتعليمه في أرقى مدارس المدينة قد بات ضيفاً على إصلاحية الأحداث.. كانت تفكر بالأثر النفسي على سلوكه في المستقبل، وعلى سجله العدلي، وعلى تاريخ حياته عندما يتذكر أنه قام بمحاولة اغتصاب فاشلة.. وكيف سيتعامل معه المجتمع عندما يدخل معترك الحياة..وهاهي فضيحة والده مع سكرتيرته بهيرة قد أغرقت العائلة في الوحل.. وكانت فاتن تتساءل عن السبب في الفشل هل يعود إليها؟ أم يعود إلى زوجها الذي فرض سلوكه الغربي على العائلة بحجة الحداثة والحضارة والتميز الاجتماعي، أم هو الجهل الذي يرمينا في قشور الأشياء، دون الغوص في الجوهر والنافع منها، لماذا لا نرى في حضارة الغرب سوى الحرية الجنسية لكل من الرجل والمرأة؟ لماذا لا ننظر إلى قيمة العلم وحرية الرأي والتعبير وحق الاختلاف وحرية الاعتقاد الديني وقيمة الثقافة والفكر؟.. أسئلة كثيرة كانت تطرحها فاتن على نفسها.. وترى نفسها عاجزة حائرة ضعيفة تجاه ما يواجهها.. فتعود إلى فراشها حزينة منكسرة تتناول الأدوية والمهدئات حتى تستطيع النوم..

وفي قرية المرج تلك القرية الغافية على تخوم الجبال المتطلعة إلى البحر في أقواس من الألوان الخضراء لأشجار السنديان والبلوط والصنوبر وفي منعرجات السفوح حيث تنتشر أشجار الكرمة والتفاح والكرز والدراق. ويتمايل الزيتون على الهضاب رمز الحب والسلام والأبدية..

كانت العائلات منهمكة في طلب الرزق كل يعمل في حقله.. وعائلة خضر وسوف كما هي كل العائلات مهتمة بالبقرة والدجاج وبعض أشجار قطعة الأرض الصغيرة والتي كانت تزرع بنبات التبغ وما يتطلبه من جهد شاق منذ وضعه في المساكب ونقل الشتول وزرعه وقطافه وشكه في الخيطان ونشره في الشمس ومن ثم توضيبه حسب المواصفات المطلوبة من إدارة حصر التبغ والتنباك، لقمة مغمسة بالشقاء ولكنها تضع في النفوس فعل السحر من قناعة ورضا وسماحة في النفس وحب للعمل وعشق للأرض والحرية..

لم تكن وسيلة خائفة من المحكمة ولا والدها، فقد طمأنهم الأستاذ المحامي أحمد المحمود حول ثقته الكبيرة بكسب الدعوى، هذا المحامي الإنسان الذي لم يأخذ قرشاً واحداً في قضية دفاع عن مظلوم ضدّ ظالم مقتدر.. لقد كان الأب الروحي للعائلة، يضاف إليه التضامن من سكان القرية معها وخاصة جهود الأستاذ عزمي منصور.. ونشاط حبيبها الذي خفق قلبها له كأول حب في حياتها الشاب عمار محمود.

لقد أنساهم هذا التجاوب الإنساني ضد الظلم والدفاع عن العدالة مدة التوقيف التي قضتها وسيلة ووالدها في السجن بسبب تهمة فاتن لها بالسرقة وتواطؤ والد وسيلة معها.

كان الصباح نديّاً.. وشيء كالضباب على سفوح الجبال، سماء صافية وغيوم بيضاء تتناثر فيها وكأنها تلال من القطن الأبيض تكسبها أشعة الشمس أطرافاً أرجوانية في تشكيل بديع اللون.. في هذا الصباح كان خضر وسوف وابنته وسيلة وصديقهم عمار محمود في طريقهم في السيارة إلى المدينة لسماع النطق بالحكم في قضيتها مع فاتن الجلفي..

على باب المحكمة كان الأستاذ أحمد المحمود، وكان عمار قد ذهب إلى منزل الأستاذ عزمي منصور لاصطحابه إلى المحكمة.. وعندما بدأت الجلسة كان عدد من شباب القرية قد احتل معظم الكراسي المخصصة.. بينما وقف جمهور غفير خارج القاعة وشاركهم في ذلك شباب من المدينة من أعضاء الجمعية الثقافية.

وصلت فاتن الجلفي مع محاميها وابنها زياد.. جلس الجميع في انتظار القاضي.

بدأت الجلسة باستعراض أقوال الطرفين وخلاصة المرافعات المقدمة ثم أعلن القاضي أنه في الجلسة الماضية لم يكن لدى الطرفين ما يقدمانه، ولم يأت للمحكمة أي شيء جديد ولهذه الأسباب الموضوعية واستناداً إلى المواد القانونية المتعلقة بالموضوع أعلن:

براءة وسيلة وسّوف ووالدها خضر من تهمة السرقة لضعف الحجج المقدمة والتناقض في الأقوال وانعدام الأدلة..

كما أعلن الحكم بالحبس لمدة شهر للسيدة فاتن الجلفي تحسب منها مدة التوقيف أثناء التحقيق وبغرامة خمسة آلاف ليرة تدفع للمدعوة وسيلة خضر وسوف تعويضاً عن الأضرار المادية والمعنوية التي لحقت بها.

ويحكم بالسجن لمدة ستة أشهر على المدعو زياد الفقش باعتباره حدثاً يحسب منها مدة التوقيف في سجن الأحداث..

تغرّم فاتن الجلفي بمصاريف المحكمة وأتعاب المحامين.. والحكم قابل للاستئناف خلال المهلة المحددة لذلك.

انتهى.. ترفع الجلسة

ضجت القاعة بالتصفيق.. وهتف البعض قائلاً يحيا العدل.. تقدم خضر وسوف نحو المحامي أحمد المحمود وقبّل كتفيه تقديراً واحتراماً. أما المحامي، فتقدم نحو وسيلة وعانقها بحنان أبوي، ثم تقدم البقية وسط الفرح والهتاف يهنئون بالفوز وربح الدعوى..

انسحبت فاتن الجلفي وابنها ومحاميها وركبوا السيارة التي كانت تنتظرها، كانت حزينة تلبس السواد وكأنها في مأتم.. كان زياد مضطرباً خائفاً، أما المحامي، فقد طمأن فاتن وابنها بأن مدة التوقيف تغطي مدة السجن ولذلك.. لا خوف من شيء.. أما الغرامة فلا بد من دفعها.. وتابع قائلاً:

لا فائدة من الاستئناف.. وأعتقد أن الطرف الآخر قد أرضاه الحكم.. الأمر يعود لك، لدينا مدة خمسة عشر يوماً للاستئناف.

أجابت فاتن: لا داعي لذلك ولولا مكانتي الاجتماعية وعدم تناقضي مع نفسي لتقدمت من خضر وسوف وابنته وسيلة وطلبت الاعتذار..

(٢٦)

جاء نجاح وسيلة في الدعوى وبراءتها بالفرح على القرية، ولكنه لم يمسح الصدمة التي أحدثها موت الشابة نظيرة النعسان على المشاعر خاصة أن نظيرة كانت محبوبة لدى نساء القرية وكانت تعامل الجميع بنفس سمحة مفعمة بحب خدمة الآخرين.

كان الاستعداد قد بدأ لإقامة حفل افتتاح مقر جمعية النهضة التعاونية في قرية المرج والقرى المجاورة، وكان الدكتور محسن درويش والأستاذ عزمي منصور قد زارا القرية وقاما بتعزية آل النعسان بموت ابنتهم نظيرة وتحدثوا عن ضرورة المصالحة مع آل الأكحل لأنه تبين براءة ابنهم، وأنه من حق أي شاب أن يتقدم بطلب الزواج من أية فتاة ولها أن ترفض أو تقبل وفق ما تراه في مصلحتها بالتشاور مع أهلها.. وهذا ما حصل..وأن نظيرة كانت رمز العفة والشرف..وقد تقبّل آل النعسان هذا الرأي وقبلوا باستقبال آل الأكحل في بيتهم للتعزية بوفاة ابنتهم. وهذا ما جعل الدكتور محسن والأستاذ عزمي متفائلين في نجاح الاحتفال بعد إزالة كل الخلافات بين المواطنين..

ساحة القرية التي تتوسطها شهدت أفراح القرية وجميع المناسبات الأخرى من أعياد ومآتم أقيمت فيها خيمة ومنبر للخطابة وجهاز إذاعة ومكبرات للصوت، كما علت المكان اللافتات والأعلام وفي يوم ربيعي الطقس كانت السماء زرقاء صافية والنسيم عليل مشبع بعطر الورود وزهور الأشجار المنتشرة في حدائق القرية المحيطة بالبيوت. تواصل مجيء المشاركين فامتلأ بهم المكان.. وأطل موكب مدير المنطقة والدكتور محسن درويش وعزمي منصور وبعض المسؤولين عن دائرة التعاون وممثلين عن

مديرية الزراعة، لقد كان مهرجاناً رائعاً حسن التنظيم والاستقبال، تعاون الجميع لإخراجه بأحلى صورة وبانضباط لفت الأنظار إليه..

وقف عريف الحفل يعلن بدء الاحتفال بآيات من الذكر الحكيم ــ بعدها وقف الحاضرون دقيقة صمت على أرواح الشهداء وذكّر العريف بقراءة الفاتحة على روح الفتاة البريئة نظيرة النعسان، شعر آل النعسان بالزهو والفخر وشعروا بِرَدّ الاعتبار لهم في القرية بعدما تعرضوا لنقد شديد في الأيام الأولى لوجود نظيرة غارقة في مياه البئر..

تحدث الأستاذ عزمي منصور عن الجهود المبذولة لإقامة الجمعية والآمال المعقودة عليها لإنجاز برنامجها ودور الأعضاء والمجتمع في إنجاح هذه الجهود وأكد على دور المحبة في بناء التعاون بين الناس وما يخلقه التعاون فيهم من محبة. ثم قام الدكتور محسن درويش وألقى محاضرته بإيجاز ركز على المآسي التي سببتها هجرة الريف إلى المدينة، وزيادة عدد العاطلين وقيام المناطق العشوائية والأزمات الاجتماعية والنفسية التي تعرض إليها هؤلاء الناس وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية السيئة.

كذلك تحدث الدكتور محسن عن أثر تزايد سكان المدن في الازدحام والضجيج وتلوث البيئة وانتشار ظواهر من المرض النفسي والاجتماعي لم تكن موجودة - ودعا إلى تحسين ظروف الحياة في الريف لخلق توازن ديموغرافي واقتصادي واجتماعي..

كانت محاضرة رائعة وكان الجمهور مشدوداً لها، ثم قام أحد شباب القرية وألقى كلمة القرية - لقد كان عرساً للمحبة والوطنية والارتباط بالأرض والعمل على بناء المستقبل بالتعاون والعمل والعلم والمعرفة.

عمار محمود بذل جهداً كبيراً أثنى عليه الأستاذ عزمي والدكتور محسن، وكانت القرية قد رتبت غداء محبة شاركت فيه كل القرية - وقد تقدم والد عمار محمود من الدكتور محسن والأستاذ عزمي حيث كانا يقفان مع مدير المنطقة وشكرهما على مساعدة عمار للرجوع إلى الدراسة، وقد طلب

منهما التكرم عليه بحضور خطوبة عمار ووعداه بذلك. رغم أنه لم يتم اختيار الخطيبة بعد..

أما وسيلة وسوف فكانت تختال في زيّ ريفي لفتت إليها الأنظار بجمالها وجمال هذا الزي الذي كان يتألف من فستان طويل زاهي الألوان، وضعت على خصرها زناراً من الحرير الأحمر وفوق الفستان لبست صدرية مزركشة بالخيوط الذهبية المشغولة باليد وعلى رأسها منديل من الحرير الأبيض المطرز في الجانبين فبدت كأنها صورة لملكة جمال آرامية في جو ربيعي اختلط فيها البشر مع الطبيعة فشكلا لوحة لا يستطيع أي فنان أن يبدع أحلى منها..

عمار كان يتلهف شوقاً لمحادثتها ولكنه كان مشغولاً في المهرجان، ورغم انشغاله كانت عيناه لا تفارقاها..وكانت تبادله النظرات مع ابتسامة لطيفة..وما إن تفرق المدعوون حتى التحق عمار مسرعاً ببيت وسيلة يتحدث إلى أهلها ويسامرها.. كانت تعرف حب عمار لها.. وكان قلبها يخفق بحبه ويزداد يوماً بعد يوم.

أمها الخبيرة في مشاعرهما، أرادت أن تختبر ردّة فعله، وتعمدت أن تقول له عندما سألها عن دروسها ومدى تقدمها في الدراسة، قاطعته الأم قائلة:

ما هذه الدروس وما هذه القراءة؟!

أجابها عمار: الدراسة ضرورية يا خالة، وسيلة ذكية جداً، لقد درست في شهرين ما يدرسه الطلاب في عام، ستكون خلال عام بمستوى الشهادة الابتدائية وبعدها بعام ستتقدم على الشهادة الإعدادية، هكذا فعلت أنا يا خالة.

- سننتظر سنين يا عمار، ما نفع الانتظار، أريدها أن تتزوج ثم قالت بخبث: البارحة جاء من يطلبها للزواج، ثم غادرت المكان متعمدة ذلك..

وقف عمار معقود اللسان، وقد بدا عليه القلق والاضطراب، وجه نظره نحو وسيلة فلم تتكلم لأن والدها كان يشاركهم الجلوس..

سأل عمار خضر وسوف، ما رأيك يا عم بدراسة وسيلة؟

أجابه خضر: الدراسة جيدة، والزواج جيد أيضاً.. والاثنان أفضل..

بقيت الحيرة لدى عمار دون أن يحصل على جواب واضح.. نظر ثانية إلى وسيلة وبادلته بابتسامة زادته ثقة بحبها.. ثم نهض مودعاً وغادر المنزل.

كان عمار يفكر في الطريق أنه قرر بشكل حاسم أن يفاتح والده بخطبتها.. كان يخطط أن يؤجل طلبها عاماً آخر ريثما يباشر عمله الموعود في التربية ومن جهة أخرى تكون وسيلة قد تقدمت بالدراسة ويكون قد مضى عام على نهاية الدعوى بينها وبين فاتن الجلفي.. وهاهو الآن يجد نفسه محاصراً بالوقت، وعليه أن ينظر إلى كلام أمها بالكثير من الجديَّة، من يدري ماذا تخطط أم وسيلة لابنتها؟ الأمر الذي يوقعه بصدمة حب جديدة قد لا تستطيع أعصابه التي حطمتها غزالة سابقاً أن تصمد أمام صدمة جديدة..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٢٧)

في الحي الجنوبي من القرية انبعث ضجيج شغب أو مظاهرة بدأ بالارتفاع حتى أصبح مسموعاً في القرية كلها لدرجة أن الكلاب بدأت بالنباح متأثرة بما يحدث..

البعض شاهد مختار القرية وبعض الوجهاء يذهبون إلى الحي الجنوبي، وبعد استطلاع الأمر تبين أن الشيخ زاهر زيوان وهو متزمت ظل يقاوم إنشاء الجمعية ويتهم القائمين عليها بالعلمانية والإلحاد وأن التعاون والاشتراكية شيء واحد وهما ضرب من الكفر.. ودعا المواطنين إلى مقاومة الجمعية، وحدث أن عقد شباب القرية اجتماعاً لإحدى اللجان في الحي الجنوبي وما أن رآهم الشيخ زاهر يتوافدون على مكان الاجتماع حتى بدأ بالتهجم عليهم وكيل الشتائم لهم ثم تبعه بعض أنصاره فأدى إلى اشتباك بالأيدي، حال وجود المختار والمواطنين من تفاقم الموضوع.. الشيخ زاهر من تلاميذ الشيخ محمد النجار المشهور بعلاج المواطنين من الجن.. وعندما تقدم السن بالشيخ النجار أراد الشيخ زاهر أن يحل محله، ولكن مشروعه في مكافحة الجن كان يصطدم مع مشروع الدكتور محسن درويش وعزمي منصور وتطور العلم والمعرفة لدى المواطنين فقلّ دخل الشيخ المادي ونقصت قيمته المعنوية، وقد زاد في حقده على الشباب وجمعية النهضة انضمام بعض رجال الدين المتنورين لها الذين درسوا الفقه في كلية الشريعة، حتى إن أحد الشيوخ الشباب قال للشيخ زاهر ساخراً.. قل لي يا شيخ زاهر لماذا لا يسكن الجن في أوروبا.. لماذا يحبون بلدنا ومنطقتنا وقرانا فقط، فأجاب الشيخ زاهر بغضب قائلاً: أوروبا لم ينزل بها أنبياء وعندنا نزل الأنبياء وجاء الجن لمحاربتهم.. فهمت يا حضرة الشيخ الفهيم؟

أجابه الشيخ الشاب قائلاً: يا شيخ زاهر، العلامة الشيخ سليمان الأحمد رحمه الله له بيت من الشعر يقول فيه:

أيهـــــا الجـــــن اتركونـــــا واقـــــصدوا أهـــل أوروبـــــا

وهذا دليل اعتقاد الشيخ سليمان بأن الشعوذة والخرافات وسحر الجن هو تخلف وجهل، والدليل أن أوروبا تطورت عندما اعتمدت على العلم والعقل ورفض الخرافة والجهل.

فأطرق الشيخ زاهر رأسه بالأرض وانسحب مسرعاً من المكان.. وكان يتباهى بأنه أعاد طالبة جامعية للدراسة بعد أن كان الجن يخيفها ويظهر لها في غرفتها التي استأجرتها أثناء الدراسة، فقد كان الجن يدخل الغرفة ويكسر الصحون، ويشعل الحرائق ويغلق الأبواب والشبابيك بعنف محدثاً أصواتاً وقهقهات عالية.. فقد استطاعت التمائم والرقى التي كتبها للطالبة أن ترغم الجن على الهرب وتابعت الطالبة دراستها الجامعية وتخرجت وأصبحت مدرّسة في وزارة التربية وكان يرد الشباب عليه بأن الطالبة ذهبت إلى الطبيب وعالجها من أوهامها.

الجدال بين الشيخ زاهر وشباب النهضة كان يتجدد في كل برنامج تطرحه الجمعية، ولكن قيادة الجمعية كانت لا تحرم الشيخ زاهر من مخصصات البذور والأسمدة وكان عمار محمود يأخذها له حيث كان يحظى لدى الشيخ بالتقدير والاحترام، وكان الشيخ يذكره بأيام مرضه وعلاجه عند الشيخ النجار حيث كان الشيخ زاهر يقضي وقته متدرباً عند الشيخ النجار..

أيام مرت على قرية المرج، وجمعية النهضة حققت نجاحاً باهراً في عامها الأول، زادت إنتاجية الأرض وزاد دخل الفلاحين وزاد التفاهم والمحبة بينهم، وكثيراً من القرى قامت بطلبات تأسيس جمعيات تعاونية وانتشرت حركة التعاون بين القرى، بعض المثقفين طرح إنشاء حزب سياسي تحت اسم حزب النهضة، والبعض دعا إلى تأسيس حزب تعاوني اشتراكي، إلا أن الدكتور محسن درويش وعزمي منصور وقد انضم إليهم شباب كثيرون في محافظات أخرى طلبوا التريث، وصارت الصحف على مستوى البلد تشير إلى حركة النهضة

وأصبح الشباب يكتبون في الصحف عن آمالهم وأحلامهم والدعوة إلى تنظيم المجتمع وتطويره، ولم يكونوا في عجلة لإنشاء الحزب. الشيخ زاهر كان عنيداً يبحث عن أية وسيلة لإزعاج خصومه، كان الدكتور محسن درويش قد ذكر في محاضرة له عن العلاقة بين الطب النفسي والإيحاء الداخلي وضرب مثالاً أن الإنسان يقنع نفسه عن طريق الإيحاء بالشفاء وهذا ما يحصل عند زيارة الأولياء لأن الإيمان بالشيء يشكل عامل إيحاء مساعد للشفاء من المرض، أما من حيث العلم، فقد أصبح الطب النفسي يعالج الأمراض بطرق علمية تحقق نتائج أسرع وأضمن.. ثم دعا لمقاومة الشعوذة والسحر والتقاليد القديمة وتحرير الفكر من سيطرتها.. اعتبر الشيخ زاهر وجماعته مسّاً وتعريضاً بالمعتقد الديني وقدّم بلاغاً للنائب العام ضد الدكتور محسن درويش الذي يدعو للإساءة إلى الدين وتخريب المجتمع وتقويض الوحدة الوطنية الأمر الذي أدى إلى إلقاء القبض على الدكتور محسن درويش وتقديمه موجوداً للتحقيق ما أثار حماس الشباب في جمعية النهضة وأحدث مظاهرة كادت أن تؤدي إلى صدام حقيقي بين الطرفين لولا سرعة تدارك الموضوع وتدخل عدد من الوجهاء والمثقفين بما فيهم نقابة الأطباء لإقناع الشيخ زاهر بسحب الدعوى الكيدية مرغماً بعد أن تعرض لانتقادات واسعة في القرية والقرى المجاورة وأصبح قضية رأي عام، لم يتمكن بعدها من التجرؤ على الظهور في المحافل العامة.

وخرج الدكتور محسن كشخصية سياسية وعلمية شجعه الكثيرون من أصدقائه على ترشيحه لمجلس النواب باسم حزب النهضة، ولكنه آثر التريث ريثما يتم إشهار الحزب بطريقة رسمية تجنباً للاصطدام بالسلطة التي بدأت لا تخفي انزعاجها من حركة شباب النهضة وانتقالهم من نطاق الدعوة للتعاون إلى طرح مشاكل المجتمع ومكافحة الفساد ومطالبة الحكومة أن تقف ضد المخططات السياسية التآمرية على البلد: وخاصة أنه استدعي إلى دائرة المخابرات كلاً من الأستاذ عزمي منصور وعمار محمود وفارس الشريف والمحامي أحمد المحمود للتحقيق معهم حول أهداف حزب النهضة.

(٢٨)

وسيلة وسّوف الشابة الصاعدة في قرية المرج والتي انطلقت بالدراسة بعد تشجيع من الأستاذ عزمي منصور ومتابعة من عمار محمود أصبحت حديث قرية المرج بذكائها وجمالها وتصميمها، فقد استطاعت بسنوات ثلاث أن تحصل على الشهادة الإعدادية في حين حصل عمار محمود على الشهادة الثانوية وأصبح معلماً في المدرسة الابتدائية في القرية.

نجاح وسيلة الدراسي، مهد لها الطريق إلى أن تستقبل حبيبها عمار محمود داخل البيت وخارجه، وأن تحضر اجتماعات جمعية النهضة التعاونية وتساهم في حثِّ بنات القرية على الذهاب إلى المدرسة وعلى الانخراط في دورات مكافحة الأمية بالنسبة لمن فاتهن الالتحاق بالمدرسة وأصبحت مثلاً لهنّ - كان المساء يلف القرية، والنجوم بدأت ترصع السماء في ليل لا تحجبها الغيوم وقد بلغ القمر من الشهر منتصف السماء بدراً، كان الوضع يغري بالسهر.. كانت مصطبة بيت خضر وسوف قد أفسحت المجال للسهر والغزل، كانت وسيلة تسامر عماراً بعد أن ذهب والدها ووالدتها للنوم، أخذت وسيلة يد عمار وبدأت تعبث بالشعر الذي يتوسط ظهر كفه مما شجعه لأول مرة أن يمسك بشعر جدائلها الحريرية فظن أنه يلامس حرير السماء تزايد الهمس وبث الأشواق، انتقلت الأيدي العاشقة لأكثر من مكان كانت موسيقى الحب تتناغم مع موسيقى الليل، الزمان والمكان وخفقات القلوب الوالهة، نظر في عينيها ونظرت في عينيه، اقترب الوجهان- ضاقت المسافة بين الشفتين، أطبق كل منهما على شفة الآخر، فذاب الرحيق في الشفاه وانقلب خدراً لذيذاً، لم يفصل بينهما سوى انقضاض القطة من أعلى السطح على شيء كان يتحرك في أعلى العريشة فانتفضا مذعورين، وعاد الهدوء بعد

معرفة السبب.. لكن عمار طلب الاستئذان تجنباً لإحراجها مع الأهل.. ولكنها وقد وقعت بالقبلة التي عرفاها لأول مرة عهداً على الحب قالت له بحنان:

عمار، آن لنا أن نعلن خطوبتنا على الملأ، لم أعد أستطيع حمل ثقل الحب وأخشى أن يحطمني، لقد تقدم عدد من شباب القرية لطلب يدي إلى الخطوبة وكنت أرفض بحجة الدراسة، لا أكتم عليك أن أمي قالت لي:

لو كان عمار يريدك، كان تقدم لخطوبتك، ماذا تنتظرين؟ للبنات مواسم، إذا ذهب موسمهن أصبحن كالبضاعة الكاسدة.. أبي تدخل مرة في الموضوع فأسكتته أمي قائلة، لماذا لم يزرنا أحد من عائلة محمود، لم نر والدة عمار أو والده يصرحان بكلمة واحدة حول رغبة ابنهما بالارتباط بابنتنا، وكنت أسمع نقاش والدي ووالدتي وألوذ بالصمت..

أجابها عمار وقد وضع يده بيدها قائلاً:

وسيلة أنا لك، أعاهدك على الحب، أعطني فرصةً بضعة أيام لأتولى ترتيب الأمور مع أهلي.. قالت وسيلة..

سأمنحك ذلك.. تصبح على خير.. ثم ودعها وانصرف.

خرج عمار ليلاً عائداً إلى منزله، كان السكان قد دخلوا في سبات الليل، لم يجد سوى الكلاب الضالة، تسلل إلى مكان نومه دون أن يشعر به أحد، لاذ بالفراش وهو يستعيد حلاوة القبلة التي تبادلها مع وسيلة، أحس كأنه محمول على بساط من السعادة يطوف به في أرجاء الكون، وسرعان ما استرد وعيه يفكر كيف يفاتح والده برغبته بالاقتران بوسيلة وسوف.

استيقظ مبكراً وانتظر والده لينظم معه حول مائدة الفطور التي كان يحرص والده عليها مع بزوغ الشمس، قال الوالد:

أين خرجت يا عمار في البارحة. انتظرتك مساء، لم تعد إلا في ساعة متأخرة.

- نعم يا والدي تأخرت بعض الشيء.

- وأين كنت في الليل، هل هناك اجتماعات في الجمعية؟

- كان عندي بعض الزيارات، وأخيراً سهرت في بيت خضر وسوف.

- خضر وسوف؟! دائماً أراك تتردد على منزل خضر وسوف، ما السر في ذلك؟

- رجل طيب، تعاطفنا معه في الوقوف ضدّ الظلم وهو يقدر هذا الشيء ويبادلنا الاحترام، كما أن ابنته وسيلة حصلت على الشهادة الإعدادية خلال ثلاث سنوات، كانت في الماضي لا تقرأ ولا تكتب.. ومساعدة هؤلاء من أهداف الجمعية.

- شهادة إعدادية؟! ما شاء الله - البنت ذكية ومجدّة. وجهودكم مشكورة.

- طبعاً ذكية وجدية وأخلاقها عالية وأريد أن أقول لك شيئاً أرجو أن لا تعارضني فيه.

- وما هو يا ولدي؟

- أحب أن أخطب وسيلة، إنني أحبها يا أبي..

صرخ الأب وسيلة، تخطب وسيلة؟!.. ثم ترك اللقمة من يده.. وصرخ بأعلى صوته قائلاً:

يا أم عمار تعالي واسمعي.. ابنك يريد خطبة وسيلة وسوف.

أسرعت والدته مستفسرة، فأعاد عليها ثانية ما قاله عمار

- أجابه عمار، ما لك يا أبي وقد استغربت الأمر؟!

- ألا تعلم يا عمار أنها كانت خادمة، وأنها تعرضت لمحاولة اغتصاب؟!

- أعلم.. ولكنها إنسانة شريفة مكافحة، لقد اضطرها فقر والدها أن تعمل خادمة، وهاهي الآن أصبحت شابة متعلمة شريفة وجميلة ما العيب بذلك؟..

ثم تابع قائلاً:

ألم يتزوج الرسول من فقيرات، وأرامل ومطلقات، ألم يتزوج الصحابة من جواري، ما العيب في ذلك إذا كان الإيمان والحب يوحدنا؟

- ماذا سيقول الناس عني يا عمار؟ ابني يتزوج من الخادمة ابنة خضر وسوف..

- أنا مقتنع يا أبي وهذه حياتي وأنا مسؤول عنها.

- وأنا أبوك غير موافق على هذا الزواج..

تدخلت أم عمار مهدئة من روع زوجها وغضبه، وأخذت عمار إلى غرفة أخرى تطلب منه أن لا يكون حاداً في النقاش مع والده..

ترك عمار المنزل مغادراً إلى المدينة، كان موعده مع الأستاذ عزمي منصور لوضع برنامج عمل الأسبوع في الجمعية والنشاطات الأخرى.. وروى للأستاذ وعزمي ما دار بينه وبين والده، فاستقبل الأستاذ عزمي الحديث بهدوء وابتسامة ووعده بمعالجة الموضوع أثناء الزيارة القادمة للقرية وسيصطحب الدكتور محسن درويش والمحامي أحمد المحمود في اللقاء مع والد عمار لإقناعه بالموافقة على الزواج من وسيلة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٢٩)

لم يخرج عمار من منزل عزمي بدور، حتى جاء من يخبرهم أن الشيخ محمد النجار قد فارق الحياة، كان عمار يشعر بالفضل والامتنان للشيخ النجار على جهوده المبذولة لمعالجته في أزمته الصحية وشفائه من الجنيّة غزالة - وبالرغم من قناعته بالطب النفسي ودور الدكتور محسن درويش في شفائه واستعادة صحته النفسية، بقي على وفائه له وذلك سعياً منه لكسب المواطنين ورفع وعيهم بالحوار والموضوعية ونشر المعرفة.

نظر إلى الأستاذ عزمي منصور، وبدا على عزمي تأثره في حادثة رحيل الشيخ وجلال الموت، وخاصة أنه كان له مع الشيخ النجار صولات وجولات من النقاش والاختلاف في الرأي، لكن كل هذه الأمور لم تمنع الأستاذ عزمي من الإعلان على أنه سيشارك في جنازة الشيخ ومرافقة عمار إلى القرية، وكان يقول الاختلاف في الرأي لا يفسد مودة ولا خلاف لنا مع الآخرين سوى الإيمان بالعلم وعدم تناقض العلم والدين.

ارتاح عمار لقرار صديقه عزمي، وخاصة أن عائلة عمار تحتفظ للشيخ الراحل بالود والاحترام بالرغم من تأثر الشيخ ومصالحه بنشاط الجمعية ومحاربتها لدور الشيخ في التأثير على عقول السذج من المواطنين وإبقائهم تحت تأثير الجن وسطوتهم - واعتقادهم بالعلاج بالسحر وتقربهم لمزارات الأولياء.

لقد كان الشيخ النجار مريضاً، وانتشر في القرية أن مرضه كان بسبب ضرب جني له استدعاه الشيخ على عجل ليساعده بالبحث عن المسبحة التي فقدها الشيخ وكانت عزيزة عليه وهي هدية من أحد الأتباع وكانت من الأحجار الكريمة، كان الشيخ يحملها باستمرار ويذكر أسماء الله الحسنى في خلوته وهو يحرك حباتها التي تزيد على المئة حبة..

طلب الجنيَّ القرين وكان الشيخ يستدعيه عند الضرورة، وأمره بالبحث عن المسبحة فما كان من الجني الغاضب الذي جاء من مسافات بعيدة إلا أن يضرب الشيخ بلكمة قوية قائلاً له: المسبحة تحت الوسادة في فراشك.. انظر إليها.. ثم انصرف..

مرض الشيخ أياماً متأثراً باللكمة التي وجهها له الجني ثم فارق الحياة.. في حين أن الطبيب كان يقول إن الشيخ مصاب بالسكري وحصلت له جلطة دماغية أصابته بالشلل الجزئي..

في جنازة الشيخ النجار، أخذ القرويون يروون الحكايات عن كرامات الشيخ النجار وكانوا يتعمدون ذكر ذلك على مسامع الأستاذ عزمي منصور وشباب القرية ممن قاوموا أفكار الشيخ وعملوا على تحجيم نفوذه، ولكن مناسبة الموت كانت أقوى من أي نقاش فلاذا الجميع بالصمت إجلالاً للموت واحتراماً للشيخ وأسرته ومريديه.

اغتنم عمار فرصة مشاركة الأستاذ عزمي في تشييع الشيخ وطلب منه عمار أن يذهب معه إلى قرية المرج لتناول الغداء في منزلهم، رحب والد عمار بذلك.. وذهبوا جميعاً إلى قرية المرج.. كان الأستاذ عزمي يتمتع باحترام لدى أسرة عمار محمود وسائر سكان القرية.

وبعد الغداء انفرد الأستاذ عزمي بوالد عمار، وفاتحه بخطبة عمار لوسيلة وسوف وضرورة إتمام ذلك، وذكر له مرض عمار والصدمة النفسية التي كادت أن توقعه بالجنون من عشقه السابق وشرح له تعلقه وحبه لوسيلة، وأن وسيلة الآن هي غيرها بالأمس وهي متعلمة وجميلة وعلى جانب كبير من المبادئ والأخلاق.. وطلب منه الأستاذ عزمي أن لا يعارض هذه الخطبة..

تظاهر والد عمار بالموافقة على مضض، ووعده خيراً. ثم تابع عزمي حديثه قائلاً:

سأزورك برفقة الدكتور محسن درويش، وقد اقترحت عليه أن نقوم بتعليم وسيلة مهنة القبالة والتمريض، لأن القرية لا توجد بها قابلة لتوليد

النساء.. وهكذا تقوم بعمل إنساني ويدر لها دخلاً مادياً ويمكن توظيفها في القرية نفسها! إذا نجحنا في المستقبل بإنشاء مستوصف في القرية لخدمتها وخدمة القرى المجاورة..

بدا الارتياح على والد عمار بعد أن فرش له الأستاذ عزمي مساحة من الأمل.. وهكذا خرج الأستاذ عزمي من هذا اللقاء وهو سعيد جداً بنجاح مساعيه، كما كان والد عمار بادي الارتياح والابتسامة تعلو محياه، الأمر الذي أدخل السرور على قلب عمار، وزاد هذا الانشراح عندما أخبره الأستاذ عزمي بنجاح مساعيه وسيكمل الموضوع بزيارة قريبة مع الدكتور محسن درويش لوالده.

ودع عزمي منصور مضيفيه ورافقه عمار إلى كراج القرية ثم ودع عمار إلى المدينة على أمل بلقاءٍ قريب.

لم يصل عمار إلى منزله عائداً من وداع الأستاذ عزمي حتى جاء أحد أعضاء الجمعية من قرية الشيخ النجار ليخبره، أنه أثناء انشغال القرية بوداع الشيخ إلى مثواه الأخير ثم مشاركة الأهالي بحضور مساء العزاء في منزل الشيخ حتى تمت سرقة أبقار عائلة محمود سويدان من قرب منزلهم الموجود في أطراف القرية، كانت السرقة تمثل ثروة محمود سويدان حيث كان لديه عشرة رؤوس من بقرات وعجول، الأمر الذي أحدث بلبلة في القرية واتهامات هنا وهناك للبعض من أهالي القرية بسرقة الأبقار.

أعلم محمود سويدان الشرطة وسارع رئيس المخفر ورجاله بالتحقيق، إلا أن الجيران نصحوا محمود سويدان بالذهاب إلى الشيخ زاهر زوين والطلب منه ضرب المندل أي وضع رجل تحت المندل وسط قراءة الشيخ زاهر وتعاويذه حتى ينطق الرجل الوسيط بالتعرف على السارق وتقديم أوصافه للشيخ..

وهكذا نطق الوسيط أنه يرى السارق وقام بوصفه قائلاً: إنه رجل أشقر الشعر أحمر الوجه نحيل القوام طويل القامة أزرق العينين يضع على رأسه غطاءً أبيض، لقد قاد البقرات نحو الوادي ثم توجه بهم شرقاً نحو الطريق العام.

كانت هذه الأوصاف تنطبق تماماً على نصر علوان الذي يسكن في الطرف الآخر من القرية وكان نصر هذا مختصاً بشراء وبيع المواشي.

شكر محمود سويدان الشيخ وذهب للمخفر ليقيم الشكوى متهماً نصر علوان بالسرقة استناداً إلى مندل الشيخ زاهر، وهلوسات الرجل الذي تحت المندل وما قام به من ذكر أوصاف السارق.

فكر محمود سويدان بالانتقام من نصر علوان والهجوم عليه ليلاً وأخذ مواشيه رهائن وحجزه حتى يعترف بالسرقة، ولكنه عدل من الفكرة بعد أن نصحه العقلاء في عائلته أن ينتظر ما ستفعله الشرطة بعد إبلاغها بشكواه، وساد التوتر بين العائلتين بعد أن سمع آل علوان بالتهمة التي وجهها إلى نصر علوان مدعومة بمندل الشيخ زاهر وفكر نصر علوان وجماعته بالذهاب إلى الشيخ زاهر ومحاسبته على ما قام به خاصة أنه يدعي علم الغيب ويوجه التهم لأبرياء، وفكر البعض بإقامة الدعوى على الشيخ زاهر واتهامه بالنصب والاحتيال وإثارة الفتنة في القرية.

سارع الأستاذ عزمي ورفاقه بمحاولة تهدئة القرية، وراجع البعض منهم المباحث الجنائية وطلبوا المساعدة وتكثيف البحث وما هي إلا أيام حتى وجدت الأبقار في بازار الماشية في المدينة وألقي القبض على الذين كانت بحوزتهم وتوصل رجال المباحث إلى الفاعلين وكانوا غرباء من أصحاب السوابق في السرقة، كانوا ثلاثة رجال عاطلين عن العمل امتهنوا السرقة وكانوا في الطريق إلى السرقة في مكان آخر فوجدوا البيت خال من السكان والأبقار ترعى في الحقل فاقتادوها عبر الأودية وباعوها لتاجر ماشية في قرية أخرى بعد أن أوهموه بشرائها من القرى المجاورة وهكذا عاد الهدوء إلى القرية واعتذر محمود سويدان لنصر علوان، أما الشيخ زاهر وحساباته، فقد أصبحت مجالاً للتهكم والسخرية، وجاء رجال الشرطة إليه يكتبون عليه تعهداً بالكف عن هذه الممارسات التي كادت أن تؤدي إلى صدام يؤثر على جو القرية والتفاهم بين أهلها..

(٣٠)

في الطريق إلى قرية المرج، كان الدكتور محسن درويش يقود سيارته وإلى جانبه زميله عزمي منصور كان الدكتور محسن متزوجاً في حين أن عزمي كان عازباً رغم أنه تجاوز الخمسين من عمره، كان الدكتور محسن يلح عليه للزواج ولكن عزمي كان يؤجل الموضوع حتى يتم إنشاء الحزب الذي يسعى إليه، وخاصة أن وقته قد كرّس لمهنة التدريس ونشر جمعية النهضة، وكان سعيداً أن جمعية النهضة قد أصبحت موجودة في كل المحافظات، وأنه تمّ تشكيل لجنة للتنسيق بين هذه الجمعيات وأنهم في الطريق لإنشاء اتحاد جمعيات النهضة في الوطن كله.

قال الدكتور محسن:

عزمي آن الأوان أن نحتفي بزواجك، ألم تفكر بالزواج.

- لقد تزوجت القضية يا دكتور محسن، أنت ترى هل لدي الوقت للاهتمام بالزوجة؟

- الزمن يمضي مسرعاً يا عزمي والإنسان يندم عندما تمر السنوات بسرعة، ها أنت قد حققت هدفك بإنشاء جمعية النهضة وهاهي انتشرت في كل أنحاء الجمهورية، وأصبح من المناسب الآن التفكير بإنشاء حزب سياسي بعد إعلان تشكيل الاتحاد العام لجمعيات النهضة التعاونية إن أعضاء الجمعيات الآن يشكلون مؤتمراً تأسيسياً للحزب، وفي اعتقادي عندما يتم الإعلان عن تشكيل الحزب سينضم إليه أعداد كبيرة من الطلاب والعمال والمثقفين وصغار الكسبة والتجار.

- لاشك في ذلك، وسنقوم بترشيحك يا دكتور في الانتخابات البرلمانية على أساس شعارات الحزب الذي ننوي تأسيسه.

- وهل تعتقد أني أنجح في الانتخابات؟

- أنا متأكد من ذلك.. واترك أمر الزواج لا تحمل همّي يا دكتور.

ضحك الدكتور محسن وانتقل إلى موضوع زيارة قرية المرج، سأل عزمي عن برنامجه في القرية فأجابه:

سننهي قضية عمار مع والده، ونجعله يوافق على الزواج من وسيلة، وبعد زواج عمار سنجعله مسؤولاً في التنظيم عن المنطقة لنركز نشاطنا على المدينة ولقد اجتمعت مع عدد من شباب المدينة لتشكيل جمعيات ثقافية وإنتاجية وخدمية.

أجاب الدكتور محسن: فعلاً لقد راجعني عدد من الشباب يطلبون ذلك.

- نعم هناك مثقفون وتجار وعمال وحرفيون.. الوضع مناسب جداً للقيام بذلك..

كانت السيارة قد أوشكت على الوصول إلى قرية المرج، كانت أشجار الصنوبر والسنديان والبلوط تصطف على الطريق كأنها في موكب لاستقبال الزوار وكانت تتهادى السفوح والوديان المزدانة بالأشجار الخضراء، بينما تعبر أسراب الطيور المهاجرة سماء القرية باتجاه البحر، كان النسيم عليلاً وروائح الأشجار وأزهارها تعطر الأجواء، كان بعض القرويين يعملون في الحقول بينما انصرف البعض للقيام بأعمالهم المنزلية أما قطعان المواشي، فقد انتشرت في المروج والهضاب وأصوات الميجنا والعتابا تنطلق بها أصوات الرعاة كأنهم في عرس مع الطبيعة.

ما أن سمع عمار صوت السيارة أمام المنزل حتى أسرع لملاقاتهما، ثم تبعه والده للترحيب بهما، وبالرغم من تقدم والد عمار في السن إلا أنه كان يملك عزيمة الشباب، وكان يفخر في أحاديثه أنه قاتل ضد الفرنسيين من أجل الاستقلال وشارك في حرب فلسطين وكان يكيل الشتائم لمن أدار هذه الحرب ولا يتردد في اتهام البعض منهم بالخيانة.. ومع تقدمه في السن كان لا يرضيه ما يراه من فساد في أجهزة الدولة ورشوة عند البعض ويسخر من

النوّاب ويعتبرهم انتهازيين وكذابين ويخدعون الشعب بالبيانات الانتخابية عند الترشيخ ولا يعرفون سوى مصالحهم.

بعد الترحيب بهم بدأ كالعادة باستعراض تاريخه، ثم بدأ بحفلة الانتقادات، كان عزمي وزميله يسمعان باهتمام ولما خرج أبو عمار من القاعة، قال الدكتور محسن لزميله، ما رأيك.. إذا رشحت نفسي للانتخابات في مجلس النوّاب ألا يعتبرني مثلهم ويضعني في قائمة الكذابين؟

ضحك عزمي قائلاً:

هذا يتوقف عليك وعلى شطارتك وتواصلك مع ناخبيك..

شرب الجميع القهوة ثم بدأ عزمي الكلام مواصلاً ما تحدث به منذ أيام مع أبي عمار أثناء مشاركته في جنازة الشيخ النجار، شارك الدكتور محسن بالحديث مؤكداً ما قاله الأستاذ عزمي.. وحصل على موافقة الأب بزواج عمار من وسيلة واتفق عمار ووالده على القيام بطلب وسيلة من والدها بأسرع ما يمكن.

وما هي إلا أيام قليلة حتى تمّ اللقاء، وأعلنت خطوبة عمار على وسيلة في حفلة شارك فيها الجميع بما فيهم عزمي منصور وصديقه الدكتور محسن درويش.

كانت وسيلة في يوم خطبتها، كملكة تجلس على عرشها، وسبحان من جعل للجمال سلطاناً على القلوب، ترتاح له الأبصار وتأنسه النفوس فكيف إذا كان هذا الجمال يوشحه حب صادق ويزينه عقل راجح وطموح لا يعرف الكلل.

وبدا عمار في قمة السعادة فقد استطاع أن يحقق أمنية عزيزة عليه، خفق قلبه بها زمناً وخطط لها وقتاً طويلاً، كان كمن يزرع الحقل وينتظر الحصاد، وهاهو الموسم حافل بالخير، لقد حصل على الوظيفة ونجح في الشهادة الثانوية، كما كان عاملاً مهماً في كفاح خطيبته وسيلة في طلب العلم وهاهي تنجح في الشهادة الإعدادية، وتتهيأ للقبول في مدرسة التمريض والقبالة بمسعى من الدكتور محسن درويش، وهاهو والدها يسترد قيمته

المعنوية في القرية ويمسح جراحه الماضية وعذابات الليالي وضنك الأيام.. وهاهي والدة وسيلة تستقبل عمار بحرارة ومودة ومحبة لم يعهدها من قبل.

أما في جانب آل محمود فقد قبل الأب الخطوبة على مضض، ووقفت أم عمار بين حبها لولدها ومعاناته مع المرض سابقاً وذكرياتها الأليمة معه وبين الطبقة العائلية التي تحتلها في القرية وقررت أن تلوذ بالصمت، في حين انطلقت ألسنة السوء تنبش الماضي وتبحث عن إثارة العيوب أملاً في تحطيم أحلام شابين أحبا بعضهما وعشقا الحياة..

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٣١)

اجتمعت عائلة خضر وسوف على إفطارها الصباحي، كانت نادراً ما تجتمع، فقد كان كل فرد فيها يتناول فطوره حسب الوقت المتاح ويذهب للعمل المخصص له، وكثيراً ما كان الفطور لقمة يأكلها على عجل في البيت أو الطريق أو مكان العمل، الذين يعملون في طلب الرزق، لا يهمهم كيف يأكلون ومتى المهم أنهم يجدون قوت يومهم ويكسبون من عمل شريف يسوقه الله لهم.. لم تكن العائلة الوحيدة التي تمارس هذا النمط من العيش، بل كان الكثير من العائلات يفعلون الشيء ذاته.

كانت الشمس قد بدأت تحتضن الكون كأم تحتضن أولادها، كانت تتلمس في أشعتها كل شيء كالأم التي تتفقد أولادها أثناء صحوهم.. وقفت العائلة جلوساً على الأرض حول طبق واسع مستدير قالت الأم موجهة الكلام للعائلة..

- لقد صحوت في الليل مرعوبة.. ولم يأتنا النوم بعدها..

- قال الأب خير إن شاء الله يا أم علي؟

- لقد رأيت حلماً مزعجاً.. ولا أدري ما هو تفسيره.

- يظهر تأخرت في تناول العشاء.. والبرغل ثقيل في آخر الليل..

- أنت دائماً تحب المزاح.. وتأخذ الدنيا بالضحك والسخرية

- الحياة كلها أحلام مزعجة يا أم علي.. أنا لا أرى أحلاماً إطلاقاً، مرة واحدة رأيت حلماً ورأيت أنني أمام عروسة جديدة، وخفت أن أحكي لك ما رأيت فتتهمينني بالخيانة.

- اسكت يا خضر.. دائماً قلبك فاضي..

أصرت وسيلة على والدتها أن تذكر لها الحلم، فرفضت ونتيجة إلحاحها قالت:

رأيت أن فراش الصوف الذي ننام عليه يحترق.. ولما أسرعت وحاولت إطفاءه وجدت النار قد أتت عليه..

وما تفسير ذلك يا أمي؟ قالت وسيلة:

الفراش يا بنيتي يرمز للزوجية وأخشى أن يموت أحدنا، أنا أو والدك ثم تابعت قائلة:

أرجو الله يا بنيتي أن تتزوجي وأرى أولادك قبل موتي.

- يا أمي قلت لك إن الأحلام هي هواجس الإنسان في حياته، تختزنها الذاكرة وتعيد تسريبها في النوم، هكذا قرأنا في علم النفس.. وسألت الدكتور محسن درويش عن الأحلام، وأكد لي أن الأحلام اجترار للواقع.. والأحلام تريح الذاكرة، تنهدت الأم تنهيدة طويلة، ثم تركت العائلة تكمل فطورها وخرجت إلى صحن الدار تجمع الثياب عن حبل الغسيل.. كانت تحمل في فكرها همَّ وسيلة وأن يحدث شيء ما يفسد هذا الزواج.. وأثرت أن تذكر هواجسها بالخوف من الحلم بإسقاطه عليها وعلى زوجها بموت أحدهما.. ولكن في قرارة نفسها كانت تخاف أن لا يتم جمع وسيلة وعمار من الزوجية على فراش واحد..

خرجت وسيلة إلى الدار تساعد أمها، ثم قالت لأمها:

لماذا أراك مهمومة.. وكأنك والهمُّ توأمان؟!

- الهمّ كالهواء يا ابنتي، يتسلل إلينا ويعيش فينا، وإذا كان قويّاً يغلبنا وإذا كان خفيفاً نغلبه.

- وهل ستذهبين إلى الشيخ لتفسير الحلم.

- لا داعي للذهاب إلى أحد.. قلبي دليلي.. وما يأتي من الله خير.

- حسناً فعلت يا أمي.. الله سبحانه وتعالى لم يعط علمه إلى أحد..

- على الله يا ابنتي خذي الغسيل وضعيه في المكان المخصص له.

كانت زوجة خضر وسوف قد بدأت تشعر بالفراغ في المنزل وخاصة بعد أن ذهب ولداها علي ومحمد وتطوعا في الجيش بعد حصول كل منهما على الشهادة الابتدائية.. كانت الأم ترغب أن يستمر في الدراسة.. ولكن قسوة الحياة والحاجة لهما لدخول العمل في سن مبكرة ومساعدة العائلة منعهما من متابعة التعليم، كانت تشعر بالندم على إرسال وسيلة للمدينة للعمل كخادمة، وقد علمها هذا الدرس المؤلم، أن يتصدى الرجال في العائلة للمهمة، وتظل البنات تحت مظلة شرف العائلة كي لا يحدث طارئ ولو كان نسمة عابرة. وكانت أم علي تخشى أن يموت ولداها في الحرب وخاصة أن الفقراء يذهبون في طاحونة الحرب والأثرياء يقبضون الثمن.. أما الزوج، فكان يعتبر الخدمة في الجيش والموت في سبيل الوطن شرف والشهادة في الدفاع عن الأوطان واجب يؤديه الإنسان بواجب الجهاد وفروض التضحية.

كانت وسيلة تعمل في جمعية النهضة بفعالية وتقود تعلم النساء الأميّات.. وكانت تعمل معهنّ على مقاومة أوهام السحر والشعوذة والجن وتفسير الأحلام وعبودية الجهل.. وكانت أمها تتضايق من حديث القرويات عن ابنتها، وخاصة من تقول عنها إنها لا تؤمن بالجنّ وتفسير الأحلام وتتهم شيوخ القرية بالجهل.. وعندما تفاتحها أمها بذلك، كانت وسيلة تقول لها.. يا أمي كوني مع الله ولا تبالي بما يقال لك عني.. إن الله لم يعين هؤلاء الجهلة لكي يتحكموا في خلق الله باسمه، إنه الرحمن الرحيم، الأحد الصمد.. إن العلم والمعرفة هما الطريق للإيمان والعالم يرى الله بقلبه وعقله معاً.

(٣٢)

مضى عمار محمود يعدّ العدّة ليوم العرس، كان قد التحق بوظيفته معلماً في المدرسة الابتدائية في القرية، وكان قد حقق شعبية كبيرة في عمله القيادي في جمعية النهضة التعاونية، وقد انتشرت الجمعية في كل القرى المهمة في المحافظة، ازدادت إنتاجية الأرض وحب الناس لبعضهم بعضاً، وزاد حبهم للتعاون، حتى إن خضر وسوف اشترى عن طريق الجمعية بقرة ثانية، بدأ الشباب يفكرون بإنشاء مراكز صحية لخدمة المواطنين وبعض القرى أنشأت مركزاً ثقافياً.. وزاد تأثير شباب النهضة في الأوساط الاجتماعية في الريف والمدينة وأصبح لهم ضباط اتصال بين المحافظات ومكتب للتنسيق العام بين الجمعيات، وصدرت نشرة أسبوعيّة توضح البرامج والأنشطة التي يقوم بها الأعضاء وأصبح عمار محمود شخصية معروفة على مستوى المحافظة كلها.

استطاع عمار بمساعدة والده أن يختص بغرفتين واحدة للنوم وأخرى للاستقبال مع الخدمات اللازمة للبيت الصغير، وكان قد قام بفرشهما على أقساط، كانت وسيلة تبدي رأيها في كل شيء حتى أصبح البيت جنّة صغيرة على الرغم من بساطة الأشياء فيه.

اختار يوم العرس، نفس اليوم الذي صدر الحكم فيه ببراءة وسيلة من الدعوى التي أقامتها فاتن الجلفي عليها، وهو اليوم الذي اعتبرته يوم انطلاقتها إلى حياة جديدة وبداية شعورها بالحب تجاه عمار محمود، وكانت مراسم العرس على الطريقة الريفية المتعارف عليها منذ مئات السنين، كان ذلك يحقق رغبة والد عمار ووالدته، وكان صديقاه عزمي منصور والدكتور محسن درويش قد تحمسا لفكرة إحياء التراث باعتباره تراثاً وطنياً تظهر فيه

تقاليد الحب والفروسية والتعاون، وكان العرس يبدأ بشراء مئات الهدايا من علب للحلوى أو شال نسائي أو رجالي يرسل للمدعوين من قبل رسول من أفراد العائلة يقدمها للمدعو للعرس مع إعلامه شفهياً بيوم العرس وساعة الوصول إلى مكان العرس، وكان ذلك يلزم المدعو بالحضور وهو يحمل هدية أو مبلغاً نقدياً يقدم للعروسين من قبيل المساعدة والتعاون، وكان ذلك عرفاً ينطبق على الجميع وفي ساحة القرية كان المدعوون يجلسون حسب مكانتهم الاجتماعية على الكراسي أو على مقاعد خشبية أعدت من ألواح كالمسرح تماماً.. وفي مكان آخر كان يوضع الطعام على طاولات متلاصقة لمن يريد الطعام، أما في مسرح القرية، فكان الطبل والمزمار والرقص والدبكات ميداناً للتنافس بين الصبايا والشباب، في الريف الجميع يعرفون بعضهم، حب العمل وحب الأرض وحدهم، لم تعرف القرية إلا المحبة الأخوية أو الحب الذي ينتهي بالزواج، لا تسمح التقاليد بالغش ولا أحد يتحمل العار أو الفضيحة..

كان شباب الجمعية قد توزعوا العمل بينهم وكانت القرية قد استعدت لاستقبال ضيوفها من المدينة أو القرى المجاورة، كان مدير المنطقة مدعواً مع عناصر الشرطة، وكذلك كان عزمي منصور والدكتور محسن درويش والمحامي أحمد المحمود وكثيرون غيرهم من المدينة.

كان عرساً تقليدياً لم تشهد القرية مثله منذ زمن بعيد، كانت هناك مبارزات بالسيوف على أنغام الطبول وكان في النهار في الأرض المفتوحة من سهل القرية ميداناً لسباق الخيل.. أبدى الحاضرون سعادتهم بهذا الفرح، فقد كان نابعاً من القلب لكل من يعرف العروسين، وسيلة وعمار...

كان الصحفي الفرنسي جورج برنارد، الذي تخصص في قضايا المنطقة صديقاً للدكتور محسن درويش عرفه في أيام الدراسة في فرنسا وكان مهتماً بجمعية النهضة وأهدافها ودورها في تنمية المجتمع، وكان ضيفاً على الدكتور محسن وقد دعاه لحضور العرس، كان برنارد يسجل ويصور كل

شيء وبالرغم من اهتمامه الصحفي بقضايا الديمقراطية وتطور المرأة وكيفية الانتخابات في الجمعية ودور النساء فيها، أصبح مهتمّاً في هذه الليلة بالتقاليد والأغاني والألحان الموسيقية والأزياء الشعبية.

كان الدكتور محسن يشرح له كل شيء.. ولكن برنارد سأل الدكتور محسن قائلاً:

- النساء والرجال يشاركون في العرس، فكيف العروس الآن أين هي؟!

أجابه محسن قائلاً: العروس الآن في بيت والدها.. حيث هناك بعض النساء يقمن بعملية الحنّاء وتلوين أظافرها وقدميها وكفيها بالحناء، وتسريحة شعرها، ثم إعدادها لارتداء فستان العرس الحريري وغطاء الرأس التقليدي المصنوع من الحرير المطرز وكل ذلك يعد قبل أشهر لهذا اليوم وفي الصباح تكون زفة العروس وإذا أحببت أن تراها يمكن أن ننام في القرية لرؤيتها صباحاً قال برنارد.. حسناً بكل سرور هذا شيء يسعدني..

- التفت الدكتور محسن وطلب من الشباب تهيئة مكان للمبيت.. ثم تحدث مع عزمي للبقاء في القرية، أما الأستاذ المحمود فأصر على العودة إلى المدينة لانشغاله في مرافعة أمام المحكمة.

مضت ليلة العرس.. كان عمار يجلس في مكانه المخصص ويقوم أحياناً من مكانه لإعطاء توجيه ما أو السؤال لتدارك نقص ما..

في الصباح.. كانت القرية أشبه بيوم عطلة أو عيد، قام القرويون منذ إشراقة الشمس بتنظيف الشوارع والساحات رشوها بالماء، وضعوا أواني الورد على شرفات البيوت وأمامها حيث يمر موكب العروس في الساعة الواحدة ظهراً، كانت التقاليد تقضي أن تمتطي العروس فرساً أصيلة مدربة ومجربة من الخيل يجرها أحد أقارب العروسين وتزيّن الفرس بالقماش المزركش بأزهار من القطن أو الصوف زاهية الألوان، وتضع العروس على وجهها خماراً أبيضاً شفافاً، أما غطاء الرأس فيكون مزركشاً بالخرز الملون

الذي ينعكس ويتماوج مع الضوء كقوس قزح.. وغالباً ما يوضع خلف العروس على الفرس طفل من إخوتها لا يتجاوز الخمس سنوات رمزاً لأن هذه العروس ستنجب من بعدها ذرية من الأولاد في المستقبل، واختيار الصبي هو رمز لتقليد يعلن الرغبة في إنجاب الصبيان للحاجة لهم في العمل وصون الشرف والدفاع وقت الشدة..

مشى الصحفي برنارد وأجبر الدكتور محسن على السير معه من بيت العروس إلى بيت العريس على أنغام المزامير والطبول والرقص بالسيف بعدما جرت مراسم وداع العروس لبيت أهلها.

لم يصدق برنارد نَظَره من جمال وسيلة التي كانت تبدو ابتسامتها من خلف الخمار الشفاف وثوبها الأبيض الأنيق وقوامها الأهيف الرائع.. كان برنارد يصور بشغف كمن يعزف على آلة موسيقية، كان يعود للدكتور محسن ويسأله ويسجل في مذكرته كأنه يريد تأليف كتاب عن تقاليد الزفاف في الريف السوري.

سأل برنارد الدكتور محسن قائلاً:

ألا يذهبون إلى الجامع كما يذهبون عندنا إلى الكنيسة من أجل عقد القران؟

- ابتسم الدكتور محسن قائلاً:

عقد القران يتم عند القاضي الشرعي ويسجل الزواج رسمياً في الأحوال المدنية ويوثق المهر مقدماً ومؤخراً كحق من حقوق الزوجة في عقد الزواج.. لا يوجد لدينا زواج مدني يا برنارد.

هزّ رأسه برنارد قائلاً: هذا جيد..

وصل الموكب إلى بيت الزوجية، كانت التقاليد تقضي أن يمسك أخ العروس أو والدها بيدها وينزلها عن الفرس ليسلمها إلى عريسها الذي يرافقها إلى مكان جلوسها ويقوم بإزاحة الخمار عن وجهها فقط بعد أن يكون قد وقف على سطح المنزل وقام بالمبارزة حيث هو بالعصي المصممة لهذا الشيء مع

بعض الشباب الذين يقفون بجواره ويتمكن من كسر عصيّ الآخرين رمزاً لفروسيته والقوة ثم يأخذ طبقاً مملوءاً بالدراهم المعدنية والحلوى وينثرها فوق العروس أثناء نزولها عن الفرس وسط الزغاريد والأهازيج.. سأل برنارد عن هذا التقليد فأجابه الدكتور محسن قائلاً:

هذا تقليد قديم ورد في شعر المتنبي أشهر الشعراء العرب يقوله في مدحه سيف الدولة الحمداني:

نثرتهم فــوق الأُحيــدبِ نثــرةً كما نثرت فوق العروس الدراهم

وسأشرح لك في المنزل معنى ذلك.

أجاب برنارد.. هذا جيد.. لكم تقاليد رائعة في الحب والفروسيّة.

كانت التقاليد تقضي أن يتقدم كل مدعو راغب في التبرع إلى رجل يمسك سجلاً وصندوقاً يضع المتبرع ما يرغب في هذا الصندوق ويهمس في أذن المسجل باسمه ويسلمه المبلغ.

وتابع الدكتور محسن مخاطباً ضيفه:

هناك تقليد لم تشاهده بسبب دخول العروس إلى داخل الدار ويقضي بأن تقوم بكسر آنية من الفخار أو الزجاج ووضع عجينة على عتبة الباب رمزاً لكسر النحس والشرّ ورمزاً للالتصاق الأبدي بهذا المنزل كما تدخل الخميرة في العجين أثناء الخبز..

أجاب برنارد: هذا شيء عظيم لم أكن أعرفه من قبل.

- أجابه الدكتور محسن: هذا مشهد من التراث الآرامي والفينيقي ومتعارف عليه قبل المسيحية والإسلام.

كان عرس عمار محمود بمثابة إعلان عطلة في الجمعية والقرية، وكان الخريف قد أطلّ على المنطقة بعد أن جمع الصيف أمتعته ورحل..

(٣٣)

دعا الدكتور محسن ضيفه إلى وليمة غداء في المدينة، تعمّد الدكتور أن يدعو عدداً من أصدقائه المثقفين الراغبين في إنشاء حزب النهضة، كان الأستاذ عزمي منصور في طليعة المدعوين، كان جورج برنارد سعيداً بذلك فقد كانت فرصة له ليطرح العديد من الأسئلة على الموجودين ويناقشهم في آرائهم ويرسل لصحيفته مقالاته الأسبوعية.

بدأ برنارد شكره للدكتور محسن درويش لدعوته لحضور عرس عمار محمود، ثم أردف قائلاً:

بالأمس وجدت مجتمعاً تعاونياً وديمقراطياً في آن واحد في القرية التي زرناها في العرس، لم أعرف من هو القائد؟ الجميع يشتركون ويشاركون ثم يساعدون بعضهم وكان التنظيم عفوياً ورائعاً.. لماذا لا تعمم هذه التجربة الديمقراطية التعاونية من القاعدة إلى الهرم في كل أنحاء البلاد؟ ألستم بحاجة لحزب سياسي للتعبير عن وجهة نظركم؟! أجاب الدكتور محسن قائلاً:

برنارد أنت تعرف في فرنسا كيف مشيتم في إضرابات باريس ١٩٦٨، ماذا كانت النتيجة؟!

استقال الجنرال ديغول.. ثم تناوب اليمين واليسار على الحكم.. ألم تقل لي إن الديمقراطية لديكم تختفي خلف أجهزة الأمن، وتظهر في الجنس والحرية الجنسية والمقالات الصحفية هنا وهناك. والشركات العابرة للقارات.. التغيير يا برنارد لا يقوم بالفرض ولا بالقوة إنه إرادة الشعب.. وضع القوى المؤثرة في التغيير..

- لا بأس يا دكتور محسن ولكن هذا التعبير لديكم بطيء جداً.. والتخلف يبتلع التأثيرات الإيجابية البسيطة، هناك البطالة والتعليم والفساد وتطوير المرأة.. متى يتم حل هذه المشاكل؟

- مسيو برنارد أنا طبيب أريد أن أضرب مثلاً من الطب، هل تستطيع أن تجعل الطفل يمشي قبل أن يسمح نمو عظامه بالوقوف والمشي، هل يستطيع المضغ قبل ظهور الأسنان والقيام بوظيفتها، القضية قضية ممارسة وتدرج لا أستطيع أن أعطي برنامج الطب لطفل في السابعة من عمره، كل شيء يتطلب إعداداً أليس كذلك؟

- دكتور محسن، حاجات الناس لا تستطيع الانتظار، لدينا في فرنسا أحزاب ونقابات وحرية رأي تضغط على الحكومة لإحداث التغيير، أما عندكم في الوطن العربي لا يوجد إرادة للتغيير، الشعب لا يعطى دوراً إطلاقاً الزعيم عندكم يختصر الشعب في حاشيته في كل البلاد لا أحد يسأله ماذا فعلت لا تقوم الصحافة بدورها.. المشاكل تزيد.. ما العمل؟

- مسيو برنارد نحن لا ننكر عيوبنا.. ولكن التطور يأتي من داخلنا وليس بالتدخل في شؤوننا واستعمارنا من جديد.. نحن نضع التطور كل ما نريد ومن الغرب أن يساعدنا بنزاهة.

- دكتور محسن أنتم لا يقودكم المفكرون والفلاسفة وإنما تقودكم المؤسسات الدينية والقبلية والأجهزة الأمنية وأصحاب المصالح.

يتدخل الأستاذ عزمي منصور قائلاً:

صديقك الصحفي إريك رولو، وهو يساري كما تعلم، كان يزور النخب السياسية في الدول العربية من أعلى الهرم ولم يتوغل في أوساط الشعب، نحن منفتحون على التطور والديمقراطية، لا يوجد لدينا تعصب ديني أو عرقي أو مذهبي الأشياء السلبية التي تراها هي رواسب الاستعمار لبلداننا، لم تتركوا لنا فرصة للتقدم والتطور..

يقاطعه برنارد قائلاً:

مسيو منصور؛ دائماً تقولون استعمار، إسرائيل، الغرب، ماذا فعلتم؟ أين الأحزاب السياسية وحرية الرأي، أين الصحافة ومؤسسات المجتمع المدني، الدين مازال مؤثراً.. هناك تنظيمات مسلحة واحتقار للمرأة وفساد لدى المسؤولين، نحن نريد أن يأخذ الشعب دوره، متى يتم ذلك؟

- سيد برنارد أنا درست في الغرب، أنا أستاذ في الفلسفة، أين الفلسفة الآن بعد سارتر وراسل وتوينبي وآخرون؟ أنا مختص في الفلسفة الحديثة، أنتم اعتبرتم الأحزاب الاشتراكية الوطنية في العالم الثالث شيوعية وعارضتم ناصر والثورة الجزائرية وثورة كوبا والاتحاد السوفييتي نحن نريد جسوراً للحوار ونريد من الآخر أن يفهمنا..

تدخل عدد من الشباب في الحوار.. وبالرغم من النقاش المعمق بقي كل طرف متمسّكاً بما طرحه، كان الدكتور محسن يريد من المناسبة إطلاع الشباب على الأفكار الجديدة وتعويد الشباب على أدب الحوار..

كان جورج برنارد مثقفاً وكان قد درس تاريخ المنطقة جيداً، ولكنه كان أمام مهمة صحفية تلقى التوجيهات حولها.. وقد نشر لقاءاته في صحيفته، ولكنه بقي كما هو، دور المثقفين في الغرب، أبقى عقدة التفوق لديه وحقه في توجيه الآخرين وتحميل اللوم لتلك الشعوب العاجزة عن التطور إلا بوسيط من الخارج يجبرها على سلوك التطوير بطريقتهم في التفكير..

وخرج الشباب بالشعور بالحاجة الماسة إلى إنشاء حزب سياسي تحت اسم حزب النهضة وتدارس المجتمعون ضرورة عقد اجتماع يضم مندوبين عن كل المحافظات لدفع اللائحة الداخلية ودستور الحزب، ومن ثم التقدم للجهات المختصة لأخذ الترخيص اللازم لإشهاره..

كان عمار محمود قد أنجز أسبوع العسل متجولاً مع عروسه وسيلة في بعض المدن وعاد ليتقبل التهاني بالزواج.. لم تكن ظروفه تسمح بالغياب عن القرية أكثر من ذلك.. كان موعد افتتاح المدارس قد اقترب وموعد اجتماع الجمعية العمومية للجمعية ضرورياً لعرض الميزانية السنوية عليها وإقرارها

وإقرار حسابات العام المنصرم، كانت رزمة من الأعمال تنتظره، وكان قد أخبر أهله أنه سيخصص ثلاثة أيام فقط من أجل التهنئة، وكانت وسيلة قد أخذت موافقته على زيارة أهلها والبقاء عندهم لمدة ثلاثة أيام، لقد قررا اختصار المراسم التي تقتضيها العادات والتقاليد، ليعودا لاستئناف نشاطهما، فقد كان لكل منهما دور كبير في الجمعية، كما كانت وسيلة قد بدأت دروسها قبل ذلك في مهنة القبالة والتمريض والذي هيّأ لها الدكتور محسن المستشفى المخصص لذلك.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٣٤)

كان عمار محمود قد أنهى الأيام المخصصة لقبول التهاني بالزفاف، وعادت زوجته وسيلة من زيارة أهلها، كانت السعادة تخيم على الأسرة الصغيرة، وكانت وسيلة من الذكاء وحسن التصرف بأن تقوم منذ الأيام الأولى للزفاف بزيارة حماتها أم عمار وكذلك والده وتطلب منهم الرضا وفق تقاليد أهل الريف، وكان جمالها وأدبها قد أدخل البهجة في نفس أبي عمار وزوجته وجعلهما يشعران بالرضا عن هذا الزواج بعدما كانا غير مرتاحين له في السابق..

عاد عمار لاستئناف نشاطه في المدرسة، وكان الدكتور محسن والأستاذ عزمي قد زاراه في منزل الزوجية مهنئين بالزفاف الميمون، وقدما التهاني للسيدة وسيلة زوجته، ولم يرغبا بالبقاء طويلاً ورفضا الغداء في القرية بعد أن حاولت وسيلة أن تعد الطعام لهما.. كانا منشغلين في وضع النظام الداخلي ودستور الحزب وعقد اجتماع هيئة عامة تأسيسية لإقراره وقرر العودة إلى المدينة.

في ساعة متأخرة من الليل، داهم رجال المباحث منزل الدكتور محسن درويش واقتادوه للتحقيق ولم يتركوا له فرصة للاتصال مع أحد، وعندما حاولت زوجته الاتصال مع الأستاذ عزمي وجدت الاتصال الهاتفي مقطوعاً، فوقفت حائرة لا تدري ماذا تفعل حتى الصباح، ركبت سيارة أجرة وانطلقت إلى منزل الأستاذ عزمي منصور كان مغلقاً ــ ثم ذهبت إلى الثانوية التي يدرّس بها فقيل لها إنه لم يأت اليوم ولم يترك خبراً عن سبب غيابه، بدأ الشك يراودها والريبة تتسلل إلى داخل نفسها.. فكرت قليلاً متساءلة ما العمل؟! ثم قررت العودة إلى منزلها والتزام بيتها.

في نفس الساعة من تلك الليلة كان الأستاذ عزمي منصور وآخرون من الذين حضروا الغداء على شرف الصحفي جورج برنارد قد تم اعتقالهم جرى التحقيق معهم..

كان التحقيق مع الدكتور محسن درويش نمطياً، سأله المحقق عن دراسته في فرنسا وعن الاتصالات التي أجراها وعن الصحفي الفرنسي وأسباب دعوته إلى اللاذقية ثم ذهابه إلى قرية المرج وكذلك وليمة الغداء التي أقامها. ولما كان الدكتور محسن من أهم الأطباء في المحافظة فقد أجاب بثقة زائدة عن كل الأسئلة وحوّل التحقيق معه إلى التحقيق مع الضباط المحققين قائلاً:

من أين لكم الحق أن تتدخلوا في الحرية الشخصية للإنسان في دعوة صديق له من أيام الدراسة، ومن ناحية أخرى وزارة الإعلام هي التي وافقت للصحفي لزيارة بلدنا وسفارة سورية في فرنسا منحته التأشيرة وهل يعقل أن تحققوا مع صاحب الفندق الذي نزل فيه ومع الطائرة التي قدم عليها من بلاده وعن المطعم الذي أكل فيه..

لم يقتنع الضابط بأقواله بل أجرى له مقابلة مع أصدقائه الآخرين عن سبب اجتماعهم بالسيد برنارد وكذلك عن دعوته لزيارة القرية. كان المحقق قد أحضر عدة مقالات سبق للسيد برنارد أن انتقد فيها بعض تصرفات الأنظمة العربية وكتب عن مظاهر البؤس والفقر في الريف، وبينما كان عمار محمود يهمّ بمغادرة المدرسة عائداً إلى منزله حيث تنتظره زوجته على الغداء فاجأه رجال المباحث باقتياده إلى السيارة وسط ذهول طلابه والمواطنين..

حصلت صدمة عنيفة في أوساط جمعيات النهضة في كل أنحاء المحافظة وتسربت الأنباء إلى محافظات أخرى وسط موجة عارمة من الاستياء، وفكر بعض المواطنين بتنظيم مسيرة احتجاج إلى مقر المحافظة والأطباء عقدوا اجتماعات لمناقشة اعتقال زميلهم الدكتور محسن درويش

وكذلك فعل المعلمون من أجل عزمي منصور وزميله عمار محمود، أعضاء جمعية النهضة انخرطوا في مناقشات حول العمل الواجب القيام به..

صحيفة الوطن نشرت خبراً صغيراً مفاده أنه تم التحقيق مع مجموعة من المثقفين في الساحل لإقدامهم على الاجتماع مع صحفي أجنبي بدون إذن مسبق من السلطات المختصة وقد أطلق سراحهم بعد أن أعطوا التعهد اللازم بعدم ممارسة مثل هذا العمل مستقبلاً..

زار المواطنون بأعداد كبيرة منازل الأساتذة الخارجين من الاعتقال، وأعطى رجال المباحث تقاريرهم حول انتشار هذا التنظيم وشعبيته ليس فقط في اللاذقية وإنما في المحافظات الأخرى..

لم تستطع وسيلة وسّوف وأهل زوجها تحمل اعتقال عمار ابنهم، وقضت فترة اعتقاله في حزن شديد تخلله الكثير من نوبات البكاء، لم يعتقل زوجها في حياته وها هو يلقى القبض عليه قبل إتمام شهر واحد على زواجه.

عادت وسيلة بتفكيرها إلى الحلم الذي رأته والدتها عن احتراق فراش الصوف، والرمزية التي فسرت أمها الحلم على أن الفراش في الحلم هو فراش الزوجية والعلاقة بين الزوجين، كانت تتساءل في نفسها عن هذا النحس الذي يمنع سعادتها، لقد تعرضت طفولتها للفقر والشقاء، ومحاولة اغتصاب. وهاهو اعتقال آخر يطال زوجها فيدخله السجن ويجعلها تتقلب وحيدة في فراش أعدته لمطرح سعادتها الجسدية والعاطفية في آن واحد..

كان الوسواس يتسلل إلى فكر حماتها أم عمار وكذلك والد عمار الذي أصبح طاعناً في السن وتتساءل في فراشها قائلة، ماذا يقولون عني، هل يتفاءلون بوجودي أم تعتبرني العائلة غراب نحس حلَّ في هذا البيت بعد سعادة وعليه أن يرحل..

كانت فرحتها بعودة عمار لا توصف وكذلك أفراح القرية، قارنت بينها في هذه اللحظة وفرحتها عند إعلان حكم البراءة من إدعاء فاتن الجلفي عليها.

لم تضعف عزيمة شباب النهضة عن تحقيق حلمهم بإنشاء الحزب السياسي لهم بعد أن قطعوا شوطاً بعيداً في وضع نظامه الداخلي والقسم الأكبر من مواد دستوره..

كان أحد الدارسين في فرنسا قد أخبر الصحفي الفرنسي باعتقال الدكتور محسن درويش وزملائه، حاول برنارد الاتصال مع الدكتور محسن فلم يفلح، فكتب في مقالات له عن سورية ومشاهدات فيها بما فيه عرس القرية ونقاشات المطعم، ويذكر في نهاية المقال حاشية تقول:

مازال المثقفون الذين رافقوني لعرس القرية واستضافوني على الغداء في الاعتقال بسبب الاتصال مع صحفي أجنبي، ودعا للتضامن معهم بكل الوسائل الممكنة..

شكّل هذا المقال وغيره ضيقاً شديداً للجهة التي قررت الاعتقال، حتى إنها فكرت في إعادة اعتقالهم لولا تدخل مراجع عليا في الدولة اعتبرت ذلك ليس في مصلحة النظام ويثير الرأي العام في الداخل والخارج ضدها فامتنعت عن ذلك واكتفت بالمتابعة والمراقبة.

شكلت حادثة الاعتقال لبعض القياديين في جمعية النهضة درساً مؤلماً، ولكنها شكلت لديهم أيضاً العزيمة والإصرار في متابعة الهدف الذي يعملون من أجله، وأعادوا النظر في برامجهم وأهدافهم وطريقة عملهم، كما شددوا على اصطفاء خيرة ما في المجتمع للعمل معهم، وكان الأستاذ عزمي يصر على النوعية وليس على الكميّة، وكان يقول إن: الغوغاء في حماسها المؤقت قد تستطيع لساعات أن تقوم بإحداث شيء ما، ولكنها لا تملك الرؤية والفكر لخلق واقع جديد، إنها كالسيل يجرف كل شيء، ونحن نريد أن نخلق بحيرات وسدوداً تنظيمية تستوعب حركتها وتقودها لخلق واقعٍ جديد ومستقبلٍ أفضل.. في حين كان يركز الدكتور محسن حول ضرورة حل المشاكل بالتدريج وحسب الإمكانية ودرجة الوعي الاجتماعي، وكان يقول: إن القفز إلى الأمام والجهل بالواقع سيؤدي إلى كوارث تمنع حركة التقدم في المجتمع وتكون عبئاً عليه يدفع إلى الوراء ويشكل إحباطاً لدى المناضلين ولدى الجماهير.

أفكار ونقاشات كثيرة كانت تجري في المدينة والريف على السواء وفي أماكن العمل والمقاهي ولكن الذين يستفيدون من بقاء الأمور كما هي عليه في السلطة وخارجها لم يكونوا مرتاحين لهذا الحراك الاجتماعي والسياسي الذي كان يراقب بالشك والحذر.

الهيئة العامة السورية للكتاب

(٣٥)

كان الخريف في الساحل قد نصب خيامه على الجبال والغابات والسهول، ولوّح الصيف بالرحيل حاملاً أمتعته على ظهر السفن بعد أن عاتبه البحر على ما رماه من أوساخ وأحدثه من تلوث على المياه والشواطئ، ولكنه كان عتاباً دبلوماسياً رقيقاً، فالصيف والبحر عاشقان منذ الأزل يلتقيان ويفترقان.. ولكنهما يصران على استمرار المحبة التي لا تنفصم عراها، إنها علاقة العضو بالجسد، والعجيب أنهما قادران على تطهير نفسيهما من الآثام والصعود إلى الملكوت الأعلى ملكوت الرب، تاركين الإنسان في ضعفه وعجزه عن بلوغ الكمال.

الخريف في الساحل محطة الآلهة لممارسة السكينة، الإله "يَمّ" إله البحر يطلب من بحره أن يكون هادئاً رقيقاً كصحيفة من البلور السماوي يستمد زرقته من السماء ويبث أشواقه للأرض نسيماً عليلاً وينفث دخانه العطري المقدس غيوماً بيضاء كغلالة تأتزر بها عروس في يوم زفافها، ما أعظم البحر وما أعجب الخريف يتباريان بالعطاء للإنسان، البحر وافر الصيد، يمضي الصيادون به في أمان واطمئنان فيغرفون من كرمه ويعودون محمّلين بالغنائم، أما الفقراء الذين يشتهون وجبة من السمك ولو مرة في العام، فالخريف هو المتعهد الكريم الذي يطلب من "يم" إله البحر أن يقوم بذلك.. البحر كريم لا يقبل التوسل.. ولكنه يحب الاعتراف بالجميل..

كان مقهى العصافيري القديم المجاور للبحر ملتقى الشباب، وكانوا قد اتفقوا أن يعقدوا جلساتهم في هذا المقهى.. حيث تمّ عرض الخُطوط العامة لمبادئ الحزب ونظامه الداخلي.. لم يكن الأمر معقداً، الحزب مفتوح لكل المواطنين شريطة الالتزام بالنهضة على أساس المواطنة والقانون والتمتع بالحريات وفق مبادئ حقوق الإنسان وأخلاقية الأمة وهويتها القومية، الدين

لله والوطن للجميع، الفصل بين الدين والدولة، والإيمان بالعلم ومنجزاته وبالرأي وحرية التعبير وحماية وحدة الشعب والدفاع عن الوطن.

والتنظيم متدرج من الحي إلى المركز فالمحافظة والإقليم، القيادات منتخبة والمؤتمرات يحددها المؤتمر العام.. والحياة ديمقراطية تقوم على التعددية الحزبية والسياسية، والفصل بين السلطات..

استمر النقاش أياماً دون أن يتبلور الإطار النظري الذي يتم دعوة المؤتمر العام من أجله، البعض كان يرى استعجالاً في ذلك والبعض كان يرى مزيداً من النقاش والبحث والدراسة وصولاً إلى أفضل النتائج.

كان تَقدّم السن قد أثر في جسد الأستاذ عزمي منصور، وأصبح يشعر بآلام في الظهر تعيق حركة السير لديه، وكان القلب ضعيفاً وقد أثر به ارتفاع ضغط الدم وأصبح بحاجة للعقاقير يومياً، وكان الدكتور محسن شديد الاهتمام بصحته..

كان الأستاذ عزمي قد أحيل إلى التقاعد لبلوغه الستين من العمر، ولما كان عازباً لم يتزوج ومغترباً عاش قسماً من حياته في الخارج، وغريباً في القرية حيث مات معظم أقاربه، فكان يرى في جمعية النهضة التي شكلها بيتاً له وقد أصبحت بيوتاً بعد انتشارها ويرى في أعضائها أولاداً وأخوة له وكان يحلم أن لا يموت قبل أن يرى حزب النهضة حزباً سياسياً منتشراً في كل أنحاء الوطن.

كان عمار محمود صديقه قد أنجب ابنه الأول، ولما كان للأستاذ عزمي فضلٌ عليه فقد صمم على تسميته عزمي. وفاءً لأستاذه.. وكان الأستاذ قد أوصى صديقه عمار محمود أن يدفنه إذا مات في قرية المرج الذي أسس فيها أول جمعية للنهضة، وعندما كان عمار يبعد عنه هاجس الموت كان يقول له:

الموت يا عمار حقيقة لا نهرب منها، ولكنها لا تخيفنا، وعندما نموت يجب أن نترك شيئاً يكون أقوى من الموت هو النهضة، النهضة المستمرة الحية في نفوس الشعب تخلق إرادة الحياة، إنها الوسيلة الوحيدة التي تجعل الموت نوعاً من النوم الأبدي.. الخلود للفكر يا عمار، الخلود للفكر الذي يجعل الإنسانية أكثر سعادة.

استمر الأستاذ عزمي يروي لعمار ما عاناه والده في الغربة، وكيف مات وتركه يافعاً تحمل مسؤولية تعليم نفسه وخدمة والدته حتى ماتت، لم يترك والده ذريّةً ولم ينجب سواه، كافح عزمي وتعلّم وعاد إلى وطنه لم يوفق بالزواج أو يقدم عليه، ولكنه كان في قناعةٍ ورضى عن نفسه، وتذكر عزمي منصور كيف كافح الجن والشعوذة والسحر والتخلف، وها هو الآن يرى بعد سنوات من الكفاح انتشار العلم والتعاون بين المواطنين ثم يخاطبه قائلاً:

يا عمّار، الوطن يكبر بأبنائه، الإنسان هو الذي يصنع مجد الوطن، وكم من الأوطان انهارت بجهل أبنائها ومحاربتهم لبعضهم بعضاً وتمكين الغريب للدخول فيما بينهم والتحكم فيهم ومعاملتهم كالحيوانات..

ليس عيباً أن نعترف بعيوبنا وتخلفنا ونقد أنفسنا، ولكن العيب والعار أن لا نفعل شيئاً من أجل نهضة الوطن وعزة الأمة ووحدتها.. ونبقى في عرض مآسينا واجترار ماضينا.. هذا ليس خطاباً سياسياً وإنما حقيقة تخرجنا من وضعنا المأساوي.

أجابه عمار:

في كل مرة أراك يا أستاذ، أكتسب أفكاراً جديدة وتزداد ثقتي بنفسي وبالوطن. كل تلاميذك الذين علمتهم في الثانوي، هم أعضاء جمعية النهضة، والذين قرأوا كتبك ومقالاتك سيحملون راية أفكارك..

دخلت وسيلة وكانت قد أعدت طعام الغداء، تناولوا الغداء.. وبارك لهم بالمولود الجديد، ثم تابع زيارته في القرية، وأنهى اجتماعاً مسائياً في جمعية النهضة وأعطى توجيهاته للأعضاء.

لاحظ عمار الإرهاق البادي على الأستاذ عزمي، وتحدث مع وسيلة عن القلق على صحة الأستاذ عزمي، وقرر أن يتحدث مع الدكتور محسن درويش حول الموضوع..

أصر الأستاذ عزمي على الذهاب إلى المدينة رغم إلحاح عمار على المبيت في القرية وعرض عليه مرافقته للمدينة فرفض.. وما إن وصل إلى منزله حتى بادر بالاتصال بالدكتور محسن درويش للمجيء له فوراً، كانت الساعة العاشرة ليلاً، وكانت معظم صيدليات المدينة قد أغلقت أبوابها.

قام الدكتور محسن بإجراء الفحوصات الأولية لصديقه فوجد ضغط الدم مرتفعاً وضربات القلب غير منتظمة كان الإجهاد على الأستاذ عزمي واضحاً والقلق على وجه الدكتور ظاهراً.. قال محسن:

سأطلب الدكتور هاشم حبيب الأخصائي بأمراض القلب.

- هاشم حبيب؟! هل تثق به قال عزمي؟

- نعم أثق به - صحيح نحن من عائلتين متنافستين في المدينة ولكل منّا أفكاره، وأنا أعتبره من أكفأ أطباء القلب في المدينة رغم اختلافنا في النظرة السياسية.

- كما تريد

وذهب الدكتور محسن للهاتف يتحدث مع زميله الدكتور هاشم حبيب.

كان الدكتور هاشم حبيب قد درس الطب في الولايات المتحدة وحصل على شهادة البورد الأمريكية وبالرغم من العروض المغرية التي جاءته للبقاء في أمريكا، لكنه رفض وعاد للوطن، ورفض العمل في دمشق وآثر العمل في اللاذقية، وكان يقول دائماً: إن هناك رابطاً بين الإنسان ومسقط رأسه، وأنا أشعر بالسعادة في مدينتي التي ولدت فيها، كان من أسرة ثرية وكثيرة العدد، ولكنه كان يحمل أخلاقاً مهنية عالية وكثيراً ما كان يرفض أن يأخذ أجوراً من الفقراء.

وصل الدكتور هاشم على عجل أجرى الفحوص اللازمة للأستاذ عزمي، وأشار على زميله بدخوله المستشفى للمراقبة.. ونصحه بالراحة التامة لأن القلب ضعيف وبحاجة إلى علاج ومراقبة دائمة، وهكذا أذعن الأستاذ عزمي لنصيحة الأطباء ودخل المستشفى.

سأل الدكتور هاشم زميله الدكتور محسن، عن حزب النهضة وعبّر له عن التضامن معهم بالرغم من أنه لم يعمل في أي حزب سياسي من قبل، كما عبّر له عن استيائه أثناء توقيفهم من قبل المباحث في قصة دعوة الصحفي جورج برنارد لزيارتهم في المدينة. وكان الدكتور محسن سعيداً في تجاوب زميله الدكتور هاشم معه ووقوفه إلى ساعة متأخرة من الليل معه، وشكره الأستاذ عزمي، الأمر الذي أشعره بقوة الفكر في توحيد المشاعر والمواقف بعد اختلاف.

(٣٦)

لم تطل إقامة الأستاذ عزمي في المستشفى فقد تلقى العلاج اللازم، ولكن الأطباء نصحوه بالراحة التامة وعدم القيام بأي جهد والبعد عن الانفعال النفسي، ووضعوا له برنامجاً غذائياً ونصحوه بالمشي يومياً لمدة ساعة، ولكنه خرج وهو يشعر أنه لم يعد كما كان وأنه بحاجة لمن يساعده في المنزل، وفكر في مرات عديدة، اعتزال العمل العام والدخول إلى بيت العجزة والمسنين لقضاء الأيام المتبقية من عمره، لم يكن له أقارب ولا زوجة ولا أولاد، جعل كل همه في حياته أن ينهض بالمجتمع، تعرّض للعذاب والإهانات والسجن، لا يملك سوى بيته المتواضع ومكتبه الذي أصبح مقراً للجمعية العلمية وراتبه التقاعدي كمدرس مارس مهنة التدريس أكثر من ثلاثين عاماً، فكر أن يتبرع بمنزله بعد موته لجمعية النهضة أو لدار العجزة والمسنين التي يفكر بالانتقال إليها، ولكنه كان يستشعر ثقل اعتزاله على تلامذته ورفاقه في الجمعية ودرجة الإحباط التي سيتعرضون لها، وكان يخشى أن يربط هذا الاعتزال والانزواء من الخوف من أجهزة الأمن التي اعتقلته فترة من الوقت.. وفي كل مرة كان يعود عن قراره ويرجع قوي الإرادة يستمد العزم من ماضيه المشرّف ومن الأمل الذي يملأ نفسه بإمكانية النهوض والسير نحو الأمام..

كانت أسابيع قليلة بعد خروجه من المستشفى استردَّ بها عافيته، وأخذ يتردد عليه الدكتور هاشم حبيب وشباب كثيرون من مثقفي المدينة والريف، زادت ثقته بنفسه، عرض عليه الدكتور محسن استئناف النشاط والعمل لتأسيس حزب النهضة ووافقه بذلك..

اقترح عليه الدكتور محسن أن يتم إعداد منشور للجماهير يعلن به تأسيس الحزب من الناحية العملية، ولكننا مازلنا بانتظار الموافقة للإعلان عنه

رسمياً، وهذا يقوي ثقة الأعضاء والمواطنين بالحزب وكان للدكتور محسن ما أراد، ولكنه اقترح عليه التقدم في نفس الوقت بأخذ الموافقة على عقد اجتماع للهيئة التأسيسية وتحديد زمان ومكان الاجتماع ودعوة الأعضاء في حال الموافقة، وهكذا انطلقت ماكينة الحزب حسب الأدوار المحددة، وتمت الموافقة على إنشاء الحزب بعد تقديم الطلب بأيام..

كان الربيع قد عاد إلى الساحل مجدداً، أزهار البرتقال تملأ الجو عطراً.. وأشجار الزيتون تبدو بأزهارها البيضاء كامرأة جميلة وقد وضعت عليها إزار الصلاة الأبيض وهي واقفة بين يدي الله في صلاة كلها إيمان وخشوع، جاء الربيع ومعه البحر بأمواجه التي تنفض عن الصخور ما شوهته بها عواصف الشتاء القوية وتعيد للشاطئ الرمل التي سحبته منه الأمواج العاتية، كان كل شيء يوحي بالتجدد، لقد عاد أدونيس بعد الموت كما تقول الأسطورة وهاهي شقائق النعمان الحمراء ترقص مزهوة رمزاً لعودة أدونيس، إنه ربيع الحياة وتجددها يبعث الأمل بالنفوس، يحرك الحب في القلوب ويسمح للعشاق بالوصال. أما المتعبون والكادحون، فقد أحدث لهم الربيع أملاً بالعبور إلى جسر من الأمل ومحطات في السعادة وظروف أفضل من الحياة.. وكان الأستاذ عزمي يقول، لا شيء يبقى لنا إلا الأمل، الأمل وحده يقنعنا دائماً بقدرتنا على العمل. كانت سينما أوغاريت في وسط المدينة مكاناً مختاراً لعقد المؤتمر، ولكن المؤتمر لم يعقد، وصل بعض الأعضاء ليجدوا المكان مغلقاً وقد أحاطت به قوى الأمن، كان خبر اعتقال الأستاذ عزمي والدكتور محسن. وكان الدكتور هاشم حبيب طبيب الأستاذ عزمي بين المعتقلين فقد كان اسمه على الوصفات الطبية وفي مفكرة الأستاذ عزمي، وكانت مواعيده الطبية تسجل على أوراق عزمي.. وظنّ رجال الأمن أن هذه المواعيد الطبيه هي لقاءات سياسية، وفي بقية المحافظات جرت اعتقالات مماثلة..

كان الأمر مستغرباً كل شيء تمّ حسب النظام والقانون لعقد المؤتمر وكل مادة من المواد وفكرة من الأفكار تصب في مصلحة الوطن والعمل على نهوضه، ماذا جرى بين عشية وضحاها؟ ما الذي جعل السلطات المختصة تعود عن قرارها؟ لم يستطع أحد أن يعطى جواباً..

جريدة عربية نقلت عن مراسل أجنبي قوله: إن صراعاً داخلياً في الحكومة أدى إلى انتقادات عنيفة بسبب إعطاء ترخيص بإنشاء حزب النهضة، وإن إلغاءً للترخيص قد تمّ صدوره، وإن قيادة الحزب وبعض الناشطين من أعضائه تم اعتقالهم على ذمة التحقيق..

عاشت المدينة أياماً على وقع الحادث، دون أن تحصل على تفسير واضح عن الأسباب التي دعت إلى ذلك، فانطلقت الإشاعات والتأويلات..

الأستاذ عزمي منصور المريض بالقلب، كان يستدعى للتحقيق لساعات عدة في اليوم، لم يستطع قلبه الضعيف تحمل ذلك، نظر إلى من حوله، لم يعرف أحداً منهم، طلب منهم كأساً من الماء ثم طلب من المحققين الموافقة على إخراجه خارج القاعة لضيق التنفس الذي شعر به، كان صوته يخفت شيئاً فشيئاً ووجهه يزداد اصفراراً ويزداد شحوباً، أسرعوا في إخراجه خارج القاعة، ونظر في السماء، ثم بمن حوله وفتح فمه كأنه يريد أن يقول شيئاً وفجأة هوى الرأس على صدره وأغمض عينيه الإغماضة الأخيرة..

أسرع المحققون الاتصال بالطبيب المختص، وضع الطبيب السماعة على قلبه، كان القلب قد توقف عن الخفقان، فتح حدقة عينيه المتجمدتين، نظر بالضابط المختص قائلاً:

لقد انتهى..

طلب الضابط أن يكتب تقريراً طبياً عن الوفاة ويوضع في ثلاجة المستشفى ويرسل إشارة إلى أهله لاستلام الجثة.

كان التقرير الطبي يقول: "توقف مفاجئ في القلب وهبوط في الدورة الدموية أدى إلى الوفاة كون المريض يعاني من مرض مزمن وقد حصل ذلك أثناء النوم".. انتهى..

وصلت إشارة من المستشفى تقول:

لم يأت أحد لاستلام الجثة، لا يوجد أهل للمتوفى أو أولاد.. يرجى التوجيه. ظنّ الضابط أن هذا المتوفى لم يكن مصدر إزعاج في حياته بل في

موته أيضاً، واعتقد أن أهله رفضوا استلامه احتجاجاً.. فخرج يرغي ويزبد مهدداً باعتقال كل أهله، هؤلاء السفلة الذين يمعنون في تحدي السلطة، ثم جاء أحد الضباط وهمس في أذنه قائلاً:

سيدي.. هذا الرجل فعلاً لا أهل له ولا أولاد، أنا أعرف ذلك جيداً، واقترح أن نتصل بأهل قريته لاستلام الجثة..

قال الضابط حسناً.. تصرف.. وأشرف أنت على الموضوع..

وكانت اللاذقية، أرض الجن وقرية المرج والقرى المجاورة، قد استنفرت عندما وصلت البرقية التي حملها رجال الشرطة إلى القرية، تبرع عدد من تلامذته من جمعية النهضة للذهاب لاستلام جثة الأستاذ عزمي منصور الذي قضى أكثر من ثلاثين عاماً في خدمتهم، في حين ذهب بعض الشباب لكتابة النعي وإعلان موعد الدفن.. وذهب البعض لإعداد القبر في المكان الذي أوصى به الأستاذ عزمي على هضبة تشرف على القرية..

كان الربيع حزيناً على غير عادته.. في الدروب بين المدينة والقرية، مئات المواطنين يرافقون الجنازة، لم تكن هناك كلمات، كان غريباً في الموت وكانت الدموع أقوى من الكلمات لم يكن أحد من رفاق العمر حول نعشه.. فالجميع في الاعتقال.. أو رحلوا عن الدنيا..

قام أحد الشباب المختصين بالشريعة بالصلاة عليه، ثم ووريَ الجسد الطاهر التراب. رأى تلامذته أن يكتب على قبره حسب وصيته التي أودعها في جمعية النهضة ما يلي:

هنا يرقد عزمي منصور رائد النهضة..

عاش مغترباً.. ومات غريباً..

* * *

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الهيئة العامة السورية للكتاب

www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ١٣٠ ل.س أو ما يعادلها